
أعمال



ترجمه وقدم له وعلق عليه

الدكتور حسن حبشي

كلية الآداب — جامعة عين شمس

١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي


مطبعة لجنة البيان العربي
٥ شارع مصطفى كامل – بالظاهر – ت ٧٧٠٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ — مازال تاريخ الشرق العربى فى علاقاته المختلفة بالغرب فى العصور الوسطى فى حاجة إلى كتابة دقيقة قوامها عاملان : أولهما المعلومات التاريخية الصحيحة التى لا زال معظمها فى ثنايا المخطيات العربية والإسلامية المبعثرة فى مكتبات الشرق والغرب الخاصة والعامة، وثانيهما شهود العيان من المؤلفين الغربيين ؛ وتشغل الحروب الصليبية فى تاريخ هذا الشرق فترة غير قصيرة من الزمن تمتد من سنة ١٠٩٥ م حين عقد البابا إربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩م) مجمع كليرمونت بجنوب فرنسا ، ثم يختلف المؤرخون فى تحديد نهايتها .

والواقع أننا بحاجة ماسّة فى نهضتنا العربية الحديثة إلى الوقوف على ما حفظته لنا الأيام من كتابات الكتاب الغربيين ، والتى كان بعضها على شكل رسائل إلى ذويهم أو كتب قصيرة دوّنوا فيها ما شاهدوه بأنفسهم فى هذه الحروب التى تعد نقطة انتقال فى تاريخ الحياة والفكر والحضارة الإنسانية، وفى تاريخ النظم والقوانين ، وفى تطوّر العلاقات الاقتصادية ؛ وقد وصف هؤلاء الكتاب صور الحياة التى كانت سائدة فى عصرهم وتلقفوا بعضها بالسماع من الرحالة الذين كانت كتاباتهم موضوع دراسة الآخذين على عاتقهم تدبير الوسائل لاحتلال هذا الشرق ، فجدير بنا — ونحن على أبواب حياة جديدة — أن ننظر بعين الاعتبار إلى هذه المؤلفات الغربية وننقلها إلى لغتنا حتى يتمكّن الدارسون من كتابة التاريخ القومى لقطاع

الشرق العربي كتابة صحيحة ، ولا تلبث مكتبتنا العربية بها أن تحتل مكانة الصدارة فى المراجع العالمية والدراسات الجامعية .

ولقد شغلت نفسى بدراسة الحروب الصليبية ، وكانت جزءاً من أثناء دراستى فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندة ، ثم تهيأت لى الفرصة للقيام قياماً مجزوءاً بتدريسها لطلابى فى الجامعة ، فأحسست بالفراغ الكبير فى هذا المجال ، وكنت قد أخذت نفسى منذ حين بنقل الوثائق المتعلقة بهذه الحروب إلى العربية ، سواء ما كان منها على صور معاهدات واتفاقيات ضاعت أصولها العربية ، أو ما كان منها على شكل رسائل وكتب رحلات ومذكرات ويوميات ، فأخذت معالم الطريق فى كتابة تاريخ الحروب الصليبية تتضح أمامى ، ومن ثم آليت أن أخرجها للعربية جديدة لأول مرة ؛ ولست أطمع من وراء ذلك إلا أن تصبح المكتبة العربية حافلة بكل وسائل البحث التى يحتاجها الباحث فى هذا الميدان البكر علينا .

وأنا مؤمن إيماناً تاماً بأنه لا بد من الجمع — للكاتب العربى — بين وجهتى نظر الكتاب المسلمين والمسيحيين ، والاطلاع على ما كتبه الفريقان وغربلة تلك الأخبار غربلة دقيقة لا يقف منها إزاء روح التعصب التى تبدو من الجانبين ، إذ العصر وقتذاك عصر إيمان وحرب — أو هكذا يبدو للعيان — ، ونزاع حول أماكن ينزلها الفريقان منزلة القداسة أو ما يقاربها وكل يدّعى صحة الحجة فيما يدّعى ، وليس يهمّ الباحث المجرّد للبحث العلمى الخالص أن يصادف هذه الروح من التعصب لأنها لا تزيد عن كونها حشائش لا يعتدّ بها بل تجرفها المياه الجارية فلا تقوى على مصارعة التيار ولا يعبأ بها الملاّح ، ثم لا تلبث أن تذهب للعدم ، أو هى كالزبد — إن لم تكن الزبد بذاته — يذهب هباء ، أما ما يبقى فهو الأحداث بصورها الزمانية والمكانية وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية

والثقافية . والكتاب الذى أترجمه اليوم هو جزء من هذا المجهود الذى أرجو أن تساهم فيه جهود المهتمين بهذه المواضيع حتى نردّ إلى هذا الوطن العربى بعض الدين الذى فى أعناقنا له .

٢ — يعرف هذا الكتاب باسم Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum ويتناول الفرنجة والحجاج الذين جاءوا مع الحملة الأوربية الغربية منذ ١٠٩٥ وهى المعروفة بالحملة الصليبية الأولى .

والمعروف أن هذه الحرب كانت إحدى النتائج التى تمخض عنها المؤتمر الذى دعى إليه البابا إربان الثانى فى مدينة كليرمونت ، وإذا نظرنا إلى الحروب الصليبية باعتبارها حرب المسيحية ضد الإسلام فى أضيق الحدود، ومحاولتها إخراجه من النواحى التى تمكنت له السيطرة فيها أمكن اعتبارها امتدادا لحركة الاسترداد Reconquista الإسبانية أو تشعيبا لها ناحية الشرق الإسلامى .

ومع أنى لا أميل إلى الأخذ بهذه الفكرة للأسباب التى بينتها فى دراسة مستقلة عن هذه الحرب [١]، إلا أنه ليس ثم مانع من الإشارة إلى وحدة العامل الموجّه فى كليهما وهو امتشاق الحسام ضد الجماعات الإسلامية فى كلتى المنطقتين ، غير أنه يبدو أن المسيحية الغربية كانت تعدّ بلاد الأندلس ملكاً خالصاً لها ، ومن ثم اتسمت نزعتها فى محاربة المسلمين بها إلى استئصال شأفتهم والقضاء عليهم ؛ أما فى الشرق فقد بدى أن همّ الغرب هو القضاء على القوى الإسلامية كقوة فعالة فى تحريك أمور هذه البقعة ، كذلك كان همه منصرفا إلى تملّك بعض نواحى الشرق العربى فى إطار يعمل فيه الشرقيون والغربيون معا لخدمة الأغراض الأوربية .

(١) راجع الفصل الأول من الطبعة الثانية من كتابى « الحرب الصليبية الأولى » .

اتجهت موجة الفتوح العربية نحو الغرب وعبرت مضيق هرقل الذى عرف بمضيق جبل طارق منذ سنة ٧١١م ، واستطاع العرب فى مدى سنوات قلائل أن يستصفوا لهم معظم شبه جزيرة أيبريا عدا بعض نواح قليلة كانت الجرح الذى لم يندمل حتى أخرجوا منها ، على أن حركة التوسع العربى سارت قدما فشهد القرن التالى قيام الأغالبة بتونس ومصارعتهم البيزنطيين وأخذهم جزيرة صقلية التى وثبوا منها إلى جنوب إيطاليا فاحتلوا مدينة بارى (٨٤٨م) وتارنت (٨٥٦م) إلا أن مقامهم بها لم يطل أكثر من ربع قرن .

ثم جاءت موجة الفتوح النرمندية فبلغ مدها فيما بلغ انجلترا وصقلية وذلك منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، واستطاعت هذه الجماعة المخاطرة الشمالية بزعامة روجر الأول استخلاص صقلية من يد العرب ثم تبع ذلك جزيرة مالطة عام ١٠٩١م .

وتدلنا أحداث القرن الحادى عشر على أن هناك قوى كثيرة تعاونت — مستقلة أو متضامنة — فى محاربة العرب فى البحر الأبيض المتوسط ، والواقع أن نشاط العرب التجارى أزعج الجمهوريات الإيطالية التى كانت تريد احتكار هذا البحر لنفسها ، فنرى الجنوية والبيازنة يتعاونون معا فى محاربة العرب بصقلية عام ١٠١٦ ، ثم اندفع البيازنة إلى مدينة بونة ١٠٣٤م وقاموا بتأثير البابا فكتور الثالث بالهجوم على تونس ١٠٨٧م حيث سقطت عاصمتها المهدية فى أيديهم .

* * *

٣ — هذا هو القرن الذى كانت تلك الأحداث الحربية من الصراع العالمى وقتذاك طليعة للحروب الصليبية ، وفى وسط هذه الأحداث كلها دعى البابا إربان الثانى إلى توجيه النشاط الغربى نحو الشرق العربى ، فكان من ذلك

مؤتمر كليرمونت[١] .

وقد اختلفت الآراء حول الدواعى التى حركت البابوية إلى دعوة الغرب الأوروبى لقتال المسلمين فى الشرق ، وإن أمكن إجمالها — فيما يقال — فى كثرة شكايات حجاج بيت المقدس من سوء معاملة الفاطميين وما كان يلقاه مسيحيو هذه المنطقة على أيديهم من مآس بلغت ذروتها زمن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وإن عُدَّت هينة بالنسبة لما لاقوه حين آل بيت المقدس إلى جماعة السلاجقة ؛ وإلى جانب هذا تمسكت البابوية بفكرة الفراغ الذى نجم عن هزيمة البيزنطيين فى وقعة منزيكرت ١٠٧١ م ، فرأت أن تحل أوربة الغربية فى الدفاع عن هذه المنطقة وعن حجاجها الأوربيين ، وكانت هذه تكئة واهية وعلة سقيمة لاحتلال بلاد الشام .

وجدت دعوة البابا استجابة من الجماعات الشعبية التى تهيأ لها داعية شعبى راح يجوب آفاق فرنسا وألمانيا هو بطرس المعروف بالناسك وما هو بالناسك ، ولكنه لقب لُقِّبَ به للبسه قلنسوة تشبه قلنسوة النساك ، وقد خرج بطرس بجموع كثيفة غير نظامية دلت منذ البداية على الفوضى الضاربة أطنابها بين صفوفها ، فلم تكن هناك قيادة موحدة أو خطة مرسومة ، فسارت أسوأ سيرة ، ولم يسلم المسيحيون الأوربيون ولا الكنائس الأوربية فى النواحى التى مروا بها من تعدى هؤلاء الصليبيين مما بغَّضهم إلى نفوس من اتصلوا بهم ، على أنه قُدِّر لهذه الحملة أن تبلغ القسطنطينية وأن تعبر البسفور إلى آسيا الصغرى حيث سلكت مفاوز عدمت فيها الماء والقوت ، فهلك الكثيرون منهم .

---

(١) فصلنا أحداث ذلك فى كتابنا « الدبلوماسية البابوية » .

ووجدت هذه الدعوة تلبية من جماعة من بارونات فرنسا وزعماء النرمنديين، كان من أبرزهم جودفروى دى بويون وأخوه بلدوين، وريموند كونت تولوز، وروبرت كونت فلاندر وبوهيمند بن روبرت جسكارد عدو الإمبراطورية البيزنطية التقليدى، وابن أخيه تنكريد، وامتازت هذه الحملة — التى يمكن تسميتها بحملة الأمراء — بالنظام، وكانت الشكوى منها أقل بكثير من الشكوى من الحملة غير النظامية.

وتمكن ألكسيوس كومنين إمبراطور بيزنطة من أن يأخذ العهود بالولاء والطاعة له من معظم قواد هذه الحملة سوى ريموند وتنكريد، وسارت الحملة بعدئذ فى آسيا الصغرى حيث انفصل فريق صغير منها بقيادة بلدوين أخى جودفروى واتجه إلى الرها، حيث شارك أميرها — واسمه توروس — الأرمنى فى حكمها، ثم ما لبث أن استقل بها، مؤسسا فيها إمارة لاتينية حاول فيها زيادة العنصر اللاتينى لموازنة العنصر الأرمنى.

على أن الحملة الصليبية الرئيسية تابعت زحفها إلى الجنوب حيث أنطاكية، واستفادت من تفتت القوات الإسلامية وتنازعها فيما بينها، وتمكنت بفضل هذين العاملين — بالدرجة الأولى — من احتلال أنطاكية، واستقر فيها بوهيمند النرمندى، ثم سارت الحملة واحتلت طرابلس حتى تهيأ لها الوصول إلى بيت المقدس فانتزعته لنفسها، وتولى أمره جودفروى دى بويون الذى أبى أن يتوج فى المكان « الذى توج فيه المسيح بالشوك ».

هذه هى خلاصة الحرب الصليبية الأولى التى يتضمنها هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم وهو مذكرات شاهد عيان صحبها منذ البداية.

* * *

٤ — ويتناول الكتاب تاريخ الجماعات الصليبية التى خرجت استجابة

لدعوة البابا إربان الثانى وهى الجماعات التى تسمى فى التاريخ الغربى «بالحجاج»، رغم أنها نهضت للقتال واسترداد بيت المقدس، وقد تآلف أهل العصور الوسطى فى الغرب على تسمية الجماعات المسيحية باسم الأحرام المقدسة التى تحج إليها، ومن ثم اشتمل موضوع هذا الكتاب على «حجاج بيت المقدس».

* * *

٥ — لكن من هو مؤلف هذه المذكرات ؟

لا يعرف على وجه التحقيق من مؤلف هذا الكتاب رغم كثرة اقتباسات معاصريه منه، ورغم كثرة الإشارة إليه والاعتماد الكبير عليه فى الدراسات الصليبية المتأخرة الخاصة بالحرب الأولى. وقد صار «المؤلف المجهول» موضوع بحث الكتاب حتى يومنا هذا، ومع ذلك لم يمكن الوصول إلى كشف القناع عن اسمه وحقيقته، بل كان كل ما أمكن الوصول إليه من نتائج لا يزال موضع جدل، فهى نتائج ليست مقررة بل من قبيل الظن والترجيح لا من قبيل التأكد واليقين، ولم يستطع التصريح باسمه من الكتاب سوى الكونت ريان الذى ذكر فى مقال له بمجلة الشرق اللاتينى (ج ١ ص ١٤٥) أنه «اسكندر» كاتب وقسيس ستيفن دى بلوا الذى ساهم فى الحملة الصليبية الأولى إلى جانب النرمنديين.

غير أن الواقع يدحض هذه الفكرة، ذلك لأن كونت بلوا كان أول الفارين من أمام أنطاكية حين طال حصارها وحين ترامى إلى سمعه نبأ تقدم قوات كربوغا — أتابك الموصل — نجدة لياغى سيان والى أنطاكية؛ كما أننا نلمح فى كتابات المؤلف المجهول فى هذه المذكرات مهاجمته العنيفة فى أكثر من موضع منها لستيفن دى بلوا واتهامه إياه بالجبن والضعف وعدم خدمته الصالح الصليبى؛ أضف إلى هذا أنه ليس فيما كتبه مؤرخنا المجهول ما يشير — من بعيد أو قريب — إلى أية علاقة تربطه بستيفن دى بلوا.

ولا جدال فى اشتراك صاحب هذه المذكرات فى الحملة الصليبية الأولى النظامية اشتراكا شخصيا، لكن تعن على البال بعض أسئلة حول ماهية هذا الاشتراك ومداه ، وهـل نستطيع أن نستدل على مكانته من خلال هذه المذكرات ؟ وهل كان لهذه الشخصية انعكاس فى أحداث موضوعنا ؟

ربما وقف الجهل المطبق باسم مؤلف ما سدًّا حائلا بيننا وبين التعرف على شخصيته وأهميتها ، ولكن الأمر ليس على هذه الحال إزاء صاحب « الچستا » التى وردت فى ثناياها إشارات قد تكون عارضة ولكنها هامة فى إماطة اللثام عن بعض جوانبه ، فأول ما نلاحظه أنه لم يشر إلى فرنسا إشارة صريحة فى معرض كلامه عن رحلة البابا إربان الثانى ودعوته لمؤتمر كليرمونت فى بلاد جنوب فرنسا ، ولكنه تكلم عن الأثر العميق الذى تركته خطبة البابا وما أدّت إليه من اكتساب الأراضى الواقعة فيما وراء الجبل Ultra montanas partes ، وقد أبان المؤرخ بريييه Brehier أن هذا التعبير إنما يرمز به المؤلف إلى « فرنسا » ، إذ أن المتتبع لرحلة البابا فى التبشير بالدعوة الصليبية يتبين فى جلاء أنه ظل يدعو فى مناطق فالنسيا وبوى وبرجنديا فى المدة التى سبقت عقد مؤتمر كليرمونت والتى استغرقت منه ثلاثة أشهر كاملة ، ومن ثم كانت إشارة الچستا إلى فرنسا باسم « الأراضى الواقعة فيما وراء الجبل » دليلا على أنه كان من شبه جزيرة إيطاليا ..

وثم ناحية أخرى فى كتابات الچستا قد تحدّد موطن المؤلف، فهو يقول فى معرض الكلام عن وصول بطرس الناسك إلى القسطنطينية إن جماعة « اللمبارديين » انضموا إليه ، ويتكلم المؤلف فى موضع آخر عن الجماعة النورمندية التى دخلت أنطاكية بناء على الاتفاق السرى المبرم بين فيروز وبوهيمند ، وفى هذا الموضع يكتفى المؤلف بقوله « نزل سرجندى

لمباردى » ، وهو لا يعنى بذلك سوى نرمان وسط إيطاليا .

ويشير مرة أخرى إلى نرمان وسط إيطاليا وذلك حين استسلام أحمد بن مروان القائم على قلعة أنطاكية للفرنجة ، حيث بعث إليه ريموند كونت تولوز برايته ليرفعها على القلعة « فلما شاهدها اللمبارديون قالوا ليست هذه راية بوهيمند » ، وهذا نص صريح على تسميته نرمان وسط شبه الجزيرة الإيطالية باللمبارديين ، وهو لقب عرفوا به أثناء هذه الفترة من التاريخ ، ويزيد بريبه على ذلك أن صاحب الجستا يختص بوهيمند دون بقية الأمراء الصليبيين بكلمة « الرئيس Dominus » مما يدل على أنه كان فى جيشه ومن أتباعه .

على أن أهمية هذه النسبة تتركز فى أنه يعتبر مصدرا من المصادر الأولى فيما يتعلق بالجماعات الإيطالية التى أسهمت فى شق الحملة الصليبية الأولى ، ولكن أهمية هذا المصدر تتوقف على المكانة التى كان عليها صاحب الجستا : فهل كان من النبلاء والأشراف ؟ أم كان من العامة الذين راحوا وقوداً فى أتون هذه الحرب والحروب التى تلتها ؟

إن مذكرات الجستا صريحة كل الصراحة فى أنه لم يكن من طبقة الأمراء والقادة ، والدليل على ذلك مستمد من كلامه هو نفسه ، ففى أثناء الاستعداد للزحف على بيت المقدس يشير إلى إرسال هيج الكبير إلى الإمبراطور ليقدم لتسلم المدينة ثم يقول « بعد أن فرغ زعماؤنا من ذلك كله التأم شملهم مرة ثانية » .

كذلك لم يكن من غمار الناس ، بل كان من فئة يمكن أن نسميها بالطبقة الوسطى إن جاز استعمال هذا التعبير فى مثل ذلك العصر ، والدلائل على انتسابه لهذه الفئة متوفرة لمطالع هذه المذكرات .

وهو ليس من الحجاج ، إذ المعروف أن هذه الطبقة لم تكن تساهم قط

فى اجتماع من الاجتماعات أو تعرف شيئاً عن خطة القتال أو ما يدبره الزعماء فيما بينهم ، ومع أن مؤلف الجستا لم يكن من القادة إلا أن مذكراته تطفح بالمعلومات التى لا يتسنى للمرء الحصول عليها إلا إذا كان ذا صلة قوية براسمى خطط القتال ، وهناك نص يوضح مكانته تمام الإيضاح ويدل على أنه كان من مجلس المستشارين لكبار القادة حيث يقول : « عقدنا فيما بيننا مجلساً حربياً للتشاور فيما نصنع ، وحينذاك انعقد إجماع زعمائنا على المبادرة بإيفاد رسول إلى الترك » ، أى أنه كان من الجماعة التى تشير ، ولكن تقرير الأمر موكول إلى الرؤساء والزعماء .

وربما ذهب الظن بالمرء إلى أنه كان من جماعة رجال الدين ، ولكن ليس لدينا أى شاهد يؤكد هذا الظن فينزله منزلة الحقيقة ، ويستفاد ذلك من كلامه عن نفسه وعن القسس أثناء سفارة بطرس الناسك التى اوفدها الصليبيون إلى كربوغا وهم أمام أنطاكية فيقول « ولما لبس أساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا حللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان » ، وهذا نص صريح يفرّق فيه بين نفسه وبين رجال الدين ، بل إنه كان فى الواقع فى جماعة بوهيمند إذ نراه يفصل منذ البداية أخبار حملته وجماعته من نرمان إيطاليا الذين صحبوه .

ومما يدل على مشاركته هذه الجماعة استعماله ضمير المتكلم — وإن يكن جمعاً أحياناً — فى سرد هذه الأحداث ، ففى معرض كلامه عن استعداد بوهيمند لجمع المحاربين للنهوض إلى الشرق يقول «خرجنا فى العدد الجسيم» ثم « بلغنا بعدئذ نهر الوردار » ، وكذلك فيما أورده من أخبار الأحداث منذ وقعة الوردار حتى الاستيلاء على نيقية ، ولم يبعد صاحب الجستا عن بوهيمند إلا حين تخلف الأخير فى القسطنطينية لمشاورة إمبراطورها فى وسائل

تموين الجيش الصليبي، لكنه حتى في هذه الحالة لم ينفصل عن جيش بوهيمند إذ تولى قيادته مؤقتا تنكريد الذى رفض إذ ذاك أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور ، وسار المؤلف تحت راية تنكريد .

والكتاب بعد هذا كله أكبر مصدر لنا فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

* * *

٦ — وكما خلى الكتاب من ذكر المؤلف أو الاستدلال عليه بين الأشخاص المختلفين الذين يمكن أن يقال إنه واحد منهم ، كذلك خلى من الإشارة إلى وقت كتابته أو إملائه ، ولكن يتضح لنا من مطالعته أنه يتناول الفترة منذ دعوة كليرمونت وينتهى بوقعة عسقلان يوم ١٢ أغسطس ١٠٩٩ عقب فتح بيت المقدس ، وليس هناك على ما يظهر تكملة لما وقف عنده المؤلف . على أن الأخذ بهذه الفكرة وذلك التاريخ لا يساعدنا على تحديد تاريخ تدوينه ، غير أن هناك شواهد قد تصلح لأن تكون معالم نهتدى بها فى اقترابنا من ذلك دون أن نعتبرها دليلا قاطعاً .

بعد أن تم للصليبيين فتح بيت المقدس أخذ كثير من الحجاج فى الوفود إليه واجتاحت أوربة موجة عارمة من الفرحة حملت الكثيرين على التماس السعادة الروحية فى أداء فريضة الحج وزيارة الأحرام المسيحية المقدسة ، وكان من بين الوافدين لأداء هذه الفريضة المؤرخ Ekkéhard (+ ١١٢٥) وذلك سنة ١١٠١ ، وكان ايكيهارد رجلا جمع بين الدين وحب الاطلاع ، ولم يصرفه واجبه الدينى والتزاماته الرهبانية عن مطالعة كل ما يقع فى يده من أسفار لا سيما فيما يتعلق منها بالتاريخ ، ويعتبر إيكيهارد من المؤرخين الشهود العيان للسنة ١١٠١ ، فضمّن ذلك كتابه « بيت المقدس » الذى يعتبر مقتطفات من تاريخه الكبير والذى طبع فى الجزء الخامس من مجموعة

مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين ، وشغل هذا الجزء أربعين صفحة من الحجم الكبير .

ذكر إيكهارد في مؤلفه هذا أنه تسنى له في أثناء قيامه بالحج عام ١١٠١ مطالعة « كتيب » يتضمن قصة أحداث الحملة الصليبية ، ولم يحدد لنا إيكهارد اسم هذا الكتاب ولا مؤلفه ؛ ولما كانت الفترة الزمنية الفاصلة بين وقعة عسقلان وزيارة إيكهارد للأحرام المسيحية المقدسة لا تعدو سنتين ، فالأرجح أن « الكتيب » الذى يشير إليه هو «الجستا» ، لاسيما أن المقارنة بين الكتابين تبين لنا مدى التشابه القوى فى ذكر أحداث الحرب وأخبار الحملة منذ البداية حتى وقعة عسقلان ، وهى أحداث غاب عنها إيكهارد ولكن شهدها مؤلفنا المجهول ، أضف إلى هذا ورود بعض عبارات مقتبسة من الجستا فى كتاب إيكهارد مما ينهض دليلا على أن كتاب الجستا كان معروفاً بصورته الحالية بين عامى ١٠٩٩ ، ١١٠١ م .

وقد تهيأ للجستا أن ينتقل منذ وقت مبكر إلى أوربة الغربية فنجد الإشارة إليه بعد سنوات قلائل فى مؤلف روبرت راهب مينز الذى يعد كتابه من المصادر الهامة للحرب الصليبية الأولى ، فنراه يذكر فى مقدمته أنه استجاب لرئيس أساقفة دير مرموتييه المتوفى عام ١١٠٧م ، فراجع «تاريخاً» عن هذه الحرب أهمل الكلام عن مجمع كليرمونت ، وأن رئيس الدير طلب إليه أن ينسخه ويكمله ؛ وبمقارنة الجستا بتاريخ روبرت الراهب تتضح ملامح الجستا واضحة فى أسطر كتاب الراهب ، ومن هذا نستفيد أمرين : أولهما تأييد القول بأن الجستا كتب فى فترة تالية لانتهاء وقعة عسقلان ، وثانيهما أنه كان معروفاً فى الغرب الأوربى .

نخلص من هذا إلى القول بأن مادة الجستا ضم بعضها إلى بعض عقب

وقعة عسقلان وخرجت على شكل كتاب قبل سنة ١١٠١م، وإن ُجهل اسم مؤلفه .

* * *

٧ — أما الجستا فقد طبع منذ وقت مبكر يرجع إلى مستهل القرن السابع عشر وهذا ثبت بطبعاته المختلفة :

ا — طبعة فى هانوفر ١٦١٢ فى كتاب Gesta Dei per Francos وتشغل من ص ١ — ٢٩ فى الجزء الأول منه .

ب — فى مجموعة Recueil des Historiens des Croisades (Occidentaux) ، ج٢ ، ص ١٢١ — ١٦٣ (باريس ١٨٦٦) .

حـ — طبعة مستقلة فى هيدلبرج ١٨٩٠ قام بنشرها المؤرخ الصليبى هاجنماير بعنوان : Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum

ء — الطبعة التى قام بنشرها الأستاذ بريبيه بباريس عام ١٩٢٤ وأرفقها بترجمة فرنسية ومقدمة وتعليقات باسم Histoire Anonyme de la premiére Croisade.

* * *

٨ — وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية عام ١٩٢٤ فى نسخة بريبيه المشار إليها ، كما ترجم سنة ١٩٢٥ إلى الإنجليزية فى طبعة أنيقة خاصة فى خمسمائة نسخة فقط باسم The Frist Crusade, by S. de Chair وقد خلت من التعليقات .

* * *

أما هذه الترجمة العربية فهى أول ترجمة عربية له اعتمدت فيها أصلا

على الأصل اللاتينى فى رقمى ٢ ، ٤ ، ثم قارنتها بالترجمة الإنجليزية وكذلك بترجمته الفرنسية ، وقد استفدت من تعليقات برييه وأبنت عن ذلك فى مواضعه ، وأضفت إليها ما تيسر لى الاطلاع عليه من المراجع المعاصرة والمؤلفات الحديثة وكذلك بكتابات مؤرخى العرب والمسلمين .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أهدف إليه من وضع الأصول الأولى للحروب الصليبية فى أيدى القراء العرب ؟

القاهرة فى ٢٧ نوفمبر ١٩٥٨ حسن حبشى

— ١ —

الدعوة للحملة الصليبية الأولى

دعوة البابا ، الحملة الشعبية ، الصليبيون فى القسطنطينية حملة بوهميند ونرمان ايطاليا ، بلوغهم نهر الوردار .

١ — تحقق اليوم ما اعتاد المسيح أن يقوله دائما لأتباعه ، مصداقاً لما جاء فى الإنجيل « إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى[١] ، مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار[٢] غالة ، فكان كل ذى قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية فى اتباع السيد والسير وراءه مخلصا فى حمله الصليب لا يتوانى عن المبادرة إلى الضريح المقدس .

والواقع أن إربان[٣] الثانى — الرئيس الرسولى لكرسى رومية —[٤] سرعان ما اكتسب إلى جانبه البلاد الواقعة فيما وراء الجبل[٥] بجميع مطارنتها وأساقفتها وشمامستها وقسيسيها ، وشرع يخطب القوم ويعظهم عظات غالية قائلا إنه لا يجوز لأى ساع فى خلاص روحه أن يتوانى عن أن يسلك خاشعا طريق السيد ، وإذا أعوزه المال فالرحمة الإلهية تعينه ، وأضاف السيد الرسولى إلى ذلك قوله : « أيها الإخوان ، يجب عليكم أن

---

(١) متى ١٦ : ٢٤ ؛ مرقص ٨ : ٣٤ ؛ لوقا ؛ ٩ : ٢٣ .

(٢) هى فرنسا الحالية .

(٣) هو اربان الثانى الذى اعتلى الكرسى البابوى من ١٠٨٨ حتى ١٠٩٩ .

(٤) الواقع أن هذا كان بعد المؤتمر البابوى الذى عقد فى مدينة كليرمونت بجنوب فرنسا فى نوفمبر ١٠٩٥ ، راجع: Foucher de Chartres, R. H. Occ. Cr., t. III, p. 323; Robert le Moine; Hierosolymitana expeditio (R. H. Occ. Cr., t. III), p. 727; Brehier : l'Eglise et l'Orient, pp. 66 - 7.

(٥) المقصود بهذه العبارة « فرنسا » ، وهى تشير إلى أن كاتب الحوليات من أهل إيطاليا .

تتعذبوا كثيراً من أجل اسم المسيح فتتحملوا المشقة والفقر، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظمأ وما شاكلها من الشرور، كما قال السيد لتلاميذه: «سأريكم كم ينبغي أن تتألموا من أجل اسمي[١]»، وقوله «إني أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها[٢]»، أو كما قال أيضاً: «إنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً»[٣].

لم تلبث هذه الخطبة أن ذاعت شيئاً فشيئاً في جميع أقطار غالة وولاياتها وما كاد الفرنجة يسمعون أقواله هذه حتى بادروا في التو واللحظة إلى خياطة الصلبان على أكتافهم اليمنى، قائلين إنهم — على بكرة أبيهم — يريدون متابعة خطى المسيح واقتفاء أثره، مؤملين أن تمكنهم تلك الخطى من استرداد القوة من التتار.

٢ — سرعان ما تركت جموع الغاليين مساكنهم وانقسموا ثلاثة أقسام، فدخل فريق من الفرنجة أرض المجر وفيه بطرس الناسك والدوق جود فروى وأخوه بلدوين، ثم بلدوين كونت دى مونس، ولقد سلك هؤلاء الفرسان الشوس وكثيرون غيرهم — من أجهلهم — الطريق الذي سلكه من قبل شرلمان — ملك فرنسا العظيم — إلى القسطنطينية[٤].

(١) أعمال الرسل، ٩ : ١٦.
(٢) الرسالة إلى تيموثاوس ١ : ٨؛ لوقا، ٢١ : ١٥.
(٣) متى، ٥ : ١٢، الرسالة إلى أهل كولوسى ٣ : ٢٤.
(٤) ليس فى تاريخ شرلمان ما يشير إلى ذهابه إلى القسطنطينية ولكن الشائعات فى العصور الوسطى المتأخرة جرت على نسبة حملة صليبية إليه كما بيّن الأستاذ برهييه فى موضوعه Les origine des rapports entre la France et la Syrie, p.36 seq، ويشير نفس المؤلف فى Hist. anonyme de la première Croisade, p. 5, note 11 إلى ما جرى فى ألمانيا وقت الاستعداد للحملة الصليبية الأولى من القول بان شارلمان عاد إلى الحياة، راجع فى ذلك أيضاً Ekkehard : Hierosolymitana, (R. H. Occ, Cr.,) t. V. p. 19.

أما بطرس المشار إليه فكان أول[١] الذاهبين إلى القسطنطينية ، فبلغها [يوم ٣٠ يوليو سنة ١٠٩٦ م] وبصحبته الفريق الأعظم من الألمان، وهناك انضم إليه اللمبارديون وكثيرون سواهم ، فأمر الإمبراطور بتزويدهم بالميرة بقدر ما تسمح به طاقة البلد[٢] ، وقال لهم « لا تعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحى لأنكم لستم بالكثرة التى تمكنكم من محاربة الترك » ، فسار المسيحيون أسوأ سيرة ، إذ خربوا قصور المدينة وأضرموا فيها النيران وخلعوا الرصاص الذى كانت تغطى به الكنائس وباعوه للإغريق ، فتلظى الإمبراطور غضبا عليهم ، وأمر — وهو فى سورة حنقه — بإبعادهم عن البسفور .

لم يتورع الصليبيون — بعد كل ما ارتكبوه — عن اقتراف شتى ضروب المساوىء كإضرام النار فى البيوت والكنائس وتخريبهم إياها ، وانتهى بهم السير أخيرا إلى نيقوميديا حيث انفصل اللمبارديون والألمان عن الفرنجة ، وذلك لأن الفرنجة قد تكبروا عليهم[٣] واختار اللمبارديون

---

(١) الواقع أن بطرس الناسك لم يكن أول الصليبيين وصولا إلى القسطنطينية ، بل سبقه جوتييه سانز أڤوار الذى كان قد خرج على رأس فريق من الرعاع وسار بهم فى بلاد المجر ثم دخل بلاد الصرب فأمدهم واليها البيزنطى Nicetas بالذخيرة والسلاح فتابعوا المسير حتى بلغوا القسطنطينية يوم ٢٠ يوليو حيث أمرهم الامبراطور الكسيس كومنين بالانتظار حتى يقدم بجماعته بطرس الذى كان فى ذلك الوقت بعيدا عنه يستمع إلى شروط الإمبراطور لدخوله هو ومن معه العاصمة بعد ما جرى منهم من الأفعال القبيحة فى أوربة مما بغضهم إلى نفوس الأهالى ، فقبل بطرس الشروط وتابع سيره حيث إلتقى بجوتييه سانز أڤوار عند أسوار القسطنطينية ، راجع Abbert d'Aix, Liber Christianae (R. H. Cr Occ.) t. IV, pp 275 - 6; Grousset : Hist. des Croisades, t. I, pp. 6, 7; Runcimam : The First Crusade, vol. I, pp. 127 - 8.

(٢) Chalandon : Hist. de la première croisade, pp. 76 - 7.

(٣) Abbert d'Aix, op. cit. p.284.

لقيادتهم سيدا يدعى « رينالد » وحذا الألمان حذوهم ، ودخلوا إقليم آسيا الصغرى وساروا مدة أربعة أيام وراء نيقية [ازنيق] ووجدوا قلعة إسمها Exerogorgo قد خلت من كل مدافع عنها فاستولوا عليها ، وعثروا فيها على كميات وفيرة من الميرة كالحنطة والخمر واللحوم وشتى أنواع المأكولات.

ولما علم الترك باحتلال النصارى لهذه القلعة نهضوا لمحاصرتها ، وكان أمام بابها بئر وعند سفحها نبع ماء جار ، فنصب « رينالد » بجواره كميناً لاقتناص الترك الذين وصلوا يوم عيد القديس ميخائيل [١] حيث وجدوا رينالد ورفاقه فوثبوا عليهم وفتكوا بعدد كبير منهم ، ولاذ الباقون هرباً إلى القلعة معتصمين بها ، لكن سرعان ماحاصرهم الترك فيها ومنعوا عنها الماء فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها ، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف فى الكنف وعصروها فى أفواههم ، وكان أحدهم يبول فى يد رفيقه ثم يشرب الاثنان ، وحفر بعضهم الأرض الرطبة واضطجعوا فيها وهالوا التراب على صدورهم ، وهكذا وصلت شدة ظمئهم إلى تلك الحال ، وأخذ الأساقفة والقساوسة يقوّون عزائم رجالنا ويحضونهم على الصبر [٢] .

استمرت هذه المحنة ثمانية أيام سويا ، ثم عقد زعيم الألمان اتفاقاً مع الترك عاهدهم فيه على أن يسلمهم رفاقه ، وتظاهر بالخروج للقتال ثم هرب إليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فتبعوه ، ولقى المنية كل من أبى إنكار السيد ، أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تقاسمهم العدو كأنهم الأنعام

---

(١) وذلك يوم ٢٩ سبتمبر ١٠٩٦ .

(٢) هذه معلومات شاهد عيان لم ترد فى غير هذا الكتاب من تواريخ الحرب الصليبية الأولى .

السائمة ، واتخذ الترك بعضهم هدفاً يفوّقون إليهم سهامهم ، ومضوا يتهادون البعض ويبيعون البعض الآخر بيع الحيوان ، وساقت جماعة من العدو الغنيمة إلى مساكنها ، وأخذها غيرهم إلى خراسان [١] وأنطاكية وحلب ، وذهب كل بها إلى حيث يقيم ، وكان هذا هو الاستشهاد الكريم الذى لقيه الرجال الأوائل فى سبيل تمجيد إسم السيد يسوع .

ولما علم الترك بعد ذلك بوجود بطرس الناسك وجوتييه سانز أفوار ومن معهم فى «هرسك» الواقعة وراء «إزنيق» توجهوا نحوهم ، يعلوهم البشر مؤملين القضاء عليهم كما قضوا على رفاقهم من قبل ، وفى أثناء مسيرهم التقوا بجوتييه وهو فى جماعته ، وسرعان ما انقضوا عليهم وقتلوهم [٢] ؛ أما بطرس الناسك فقد عاد إلى القسطنطينية [٣] عاجزاً عن تنظيم هؤلاء الجند اليائسين الذين أضحوا عازفين عنه منصرفين عن خطبه ، فكـرّ الترك عليهم وذبحوا منهم جمعاً غفيراً إذ صادفوا بعضهم مستغرقاً فى نومه ، والبعض الآخر عارياً من كل شيء فقتلوهم عن بكرة أبيهم ، وكان هناك قسيس يعظ

---

(١) يلاحظ هنا أن الحوليات تستعمل كلمة «خراسان» استعمالا بهما ، ويذكر الأستاذ بربييه أن جميع المؤرخين اللاتين بل والأرمن يطلقون هذا اللفظ على جميع البلدان الداخلة تحت سيطرة السلاجقة كما يشير إلى أن البرت ديه يذهب إلى أن بغداد عاصمة خراسان .

(٢) الواقع أن إيراد الأحداث على هذه الصورة فيه شيء من الخطأ التاريخى ، ذلك أننا نجد جوتييه سانز أفوار لا يزال حيا حتى فى أثناء غيبة بطرس الناسك فى القسطنطينية ، بل أن المتخلفين بعد رحيل بطرس عقدوا مجمعا لتقرير الزحف على اجزيرجون فعارضهم جوتييه طالبا إليهم التريث حتى عودة بطرس ، ثم اجتمع الصليبيون مرة أخرى ونجح أصحاب فكرة الزحف رغم معارضة جوتييه أيضاً ، فكان من جراء ذلك المذبحة التى تتحدث عنها الحوليات فى المتن وهى التى لقى فيها جوتييه مصرعه ، راجع Runciman, op. cit., p. 131

(٣) يفسر Runciman, op. cit., loc. cit عودة بطرس الناسك إلى القسطنطينية بما كان يؤمله فى الحصول على شيء من المساعدة المادية من قبل الامبراطور ، والظاهر أنه وعد رفاقه فى السلاح بعودته إليهم فى تاريخ معين .

فلقى الشهادة على أيديهم هو الآخر على المذبح ، أما الذين استطاعوا النجاة فقد هربوا إلى « هرسك » ، وألقى بعضهم نفسه فى البحر ، ولاذ غيرهم إلى الأحراج والجبال تخفياً بها ، فانطلق الترك فى آثارهم وكدسوا الأخشاب لحرقهم هم والمدينة معاً .

غير أن النصارى الذين احتلوا المدينة أشعلوا النار فى أكداس الخشب وهب اللهب ناحية الترك ، فأهلك بعضهم حرقا ، بينما حفظ الرب رجالنا من أن تمتد إليهم تلك النيران . وأخيراً تمكن الترك من أخذهم أحياء وتقاسموهم فيما بينهم كما فعلوا مع الذين سبقوهم من قبل ، وشنقوهم فى كل النواحى ، فساقوا البعض إلى خراسان ومضوا بالبعض إلى فارس . وقد جرت كل هذه الحوادث فى شهر أكتوبر .

لم يكتم الإمبراطور فرحه العظيم حين ذاع خبر تشتيت الترك لرجالنا وأصدر أمره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه[1].

٣ — أما القسم الثانى فقد ولج أرض الصرب والكروات[2] مع ريموند الصنجيلى وأسقف پوى[3] .

أما القسم الثالث فقد سار فى الطريق القديم المؤدى إلى رومة[4] ،

---

(١) تختلف الصورة التى رسمها Albert d'Aix, op. cit , pp. 284 -9 للامبراطور عن الصورة التى صوّره بها صاحب المذكرات بالمتن ، إذ أنها هناك أكثر إنصافا مما يتفق والوضع التاريخى .

(٢) فيما يتعلق بخط سيرهذه الحملة حتى بلوغها القسطنطينية راجع Raymond d'Aguiles Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem (R. H. Occ. Cr.) t. III, p.235 seq.

(٣) هو الأسقف Adhemar de Monteil الذى اختاره البابا — عن قصد — نائبا عنه فى القيادة العليا لهذه الحملة .

(٤) فيما يتعلق بهذا الطريق التقليدى القديم للحجاج راجع J Bedier ; les legendes épiques, t. II, p. 142 saq.

وكان فى هذا الفريق بوهيمند [بن روبرت جسكارد] وريتشارد[١] السالرنى وروبرت كونت فلاندر ، وروبرت النرمندى[٢] وهيج[٣] الكبير وايفراد دى بواسيه ، وأكاد دى مونتمريل وايزور موزون ، وكثيرون غيرهم[٤] فذهب البعض إلى ميناء برنديزى ، والبعض الآخر إلى بارى ، وسواهم إلى أترانتو .

أبحر هيج الكبير ووليم بن المركيز [أخــــو تنكريد] إلى بارى ، وأرسوا فى دورازو التى ما كاد واليها يعلم بخــــبر رسو هذين الرجلين العظيمين حتى دبر لهما فيما بينه وبين نفسه خطة دنيئة ، إذ ألقى القبض عليهما واهتم بترحيلهما إلى القسطنطينية ليمثلا أمام الإمبراطور وليقسما له يمين الولاء[٥]

أخيرا وصل إلى القسطنطينية الدوق جودفروى مقدم جميع السادة

---

(١) هو ريتشارد بن وليم أخى روبرت جسكارد ، راجع عنه Gay; L'Italie meridionale et l'Empire Byzantin, p. 505.

(٢) هو الابن البكر لوليم الفاتح وكان قد ورث دوقية نرمنديا سنة ١٠٨٧ ، وقد انضم إليه ستيفن (أو ايتين فى المراجع الفرنسية) كونت بلوا Blois الذى كان قد تزوج من أخت وليم واسمها Adela وكان ستيفن هذا من أغنى أثرياء فرنسا ولذلك كان اعتماد روبرت عليه إلى حد كبير فى الأموال التى احتاجها لتجنيد المحاربين .

(٣) هو هيج كونت Vermandois أخو ملك فرنسا فيليب الأول ، راجع عنه فى هذه الناحية Albert d'Aix, op. cit., p. 53 والواقع أن نعته بالكبير خطأ وقع فيه الكتاب والمؤرخون الغربيون حتى فى عصره فهو Le maisné أى الأصغر لأنه كان أصغر أبناء هنرى الأول ملك فرنسا وكانت أمه أميرة كييف الاسكندناوية الأصل ؛ راجع عن دوره فى هذه الحرب Leib: Kiev, Rome et Byzance, p. 219

(٤) يلاحظ أنه ممن صحب هذه الحملة فولشر الشارترى سجل فيما بعد أخبارها .

(٥) الوارد فى حوليات ذلك العصر يخالف المذكور فى المتن أعلاه ، إذ خلت تلك الحوليات من الإشارة إلى مثل هذه الخطة التى يزعم مؤرخنا أن يوحنا كومنين ابن أخى الامبراطور ونائبه على دورازو قد دبرها للقائدين النرمنديين ، راجع فى تحقيق ذلك Runciman, op. cit., p. 168; Brehier, op. cit., p. 15, note 10.

على رأس جيش لجب . وكان بلوغه إياها قبل ميلاد سيدنا بيومين ، وظل مقيما بمعسكره بظاهر المدينة حتى أذن له الإمبراطور الظالم بالإقامة فى إحدى ضواحى المدينة، ولما كان الدوق باقيا حيث أمر فقد اعتاد أن يرسل رجاله يوميا فى هدوء ليجلبوا التبن وكل ما يلزم للجياد ، وكان رجاله يظنون أن فى استطاعتهم الذهاب آمنين أنَّى شاءوا ، إلا أن الإمبراطور الغادر ألكسيس أمر من لديه من الدركيولية والمرتزقة بمهاجمتهم وقتلهم أنَّى ثقفوهم(١) ، فلما تناهى ذلك الخبر إلى بلدوين — أخى الدوق — كمن [لجند الإمبراطور] فى الطريق وباغتهم وهم قاصدون القضاء على رجاله واستبسل فى الهجوم عليهم وأيده الرب بظهوره عليهم ، فأسر منهم ستين رجلا غير من قتلهم وجاء بالباقين إلى أخيه الدوق .

استبد الغضب بالإمبراطور حين استطار إليه نبأ هذه الحوادث ، فلما رآه الدوق ساخطا متخشن الصدر غادر تلك الضاحية برجاله وعسكروا خارج المدينة، فلما أرخى الليل سدوله أصدر الإمبراطور التعيس أمره إلى قواته بمهاجمة الدوق والجماعة النصرانية ، فتتبعهم الدوق على رأس جنود المسيح وانتصر عليهم وقتل منهم سبعة وطارد الباقين حتى باب المدينة ، ومن ثم عاد إلى معسكره ولزمه خمسة أيام(٢) مستجما ، ثم عقد موادعة(٣) مع

(٢) الواقع أن صاحب الحوليات لم يشر كما أشار Brehièr, op. cit., p. 17 note 2 إلى السبب الذى من أجله وقف الامبراطور هذا الموقف العدائى ، فالثابت أن مبعثه هو محاولاته المتكررة لحمل جودفروى على قطع يمين الولاء له ولكنه فشل فى ذلك ، راجع Albert d'Aix, op. cit. p. 306 - 7; Grousset, op. cit t. I, p. 16; Runciman, op. cit., I, pp.149 - 50.

(٢) Albert d'Aix, p. 150 حيث أورد فيه التاريخ ١٣ يناير .

(٣) بشأن هذه المفاوضات راجع Albert d'Aix, op. cit., loc. cit; Guill.de Tyre, Eracle, pp. 87 - 88 وبمقتضاها أقسم جودفروى ومن معه من الأفصال والاوردات باعتبار أن الأمبراطور هو الحاكم الأعلى لكل الفتوح التى يقومون بها وأن يسلموا عمال الأمبراطور جميع الأراضى التى كانت ملكا من قبل لبيزنطة .

الإمبراطور الذى حثه على مغادرة مضيق سنت جورج(١) ، وأذن له أن يتزود بالذخيرة جهد ما تسمح موارد القطنطينية ، كما تسلم منه صدقة يستعين بها على إعاشة الفقراء .

٤ — أما بوهميند المنصور الذى كان موجودا إذ ذاك فى حصار جسر سكافارد بأمالفى فقد علم بتقدم جماعة مسيحية من الفرنجة لا يحصيها العد ، وأنها عزمت على المضى إلى ضريح السيد ، وأقسمت على شن الغارة على الشعب الوثنى ، فجدَّ بوهيمند فى الاستفسار عن نوع السلاح الذى تستعمله هذه الطائفة فى القتال وعن الشعار المسيحى الذى تحمله فى الطريق وعن هتاف التجمع الذى تهتف به فى المعارك ، فقيل له « إنهم يستعملون سلاحا ملائما للحرب ، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيما بينهما ، وأما هتافهم الذى يرددونه جميعاً فى نفس واحد فهو : هكذا أراد الله ! ، هكذا أراد الله ! ، هكذا أراد الله ! » وفى الحال امتلأ بوهيمند بالروح القدس وأمر بتجزئة عباءة ثمينة كان يرتديها إلى أجزاء صغيرة وأن تعمل صلبانا(٢) .

حينذاك انطلق الفريق الأعظم من الفرسان المحاصرين للمدينة فى صولة شديدة وانضموا إلى جانبه ، حتى إن الكونت « روجار » كاد أن يبقى وحيدا ، وعاد إلى صقلية شاكيا واغتم لضياع كل جيشه .(٣)

(١) يعنى بذلك مضيق البسفور .

(٢) Cf. Chalandon, Hist. de la Domination Normande en Italie, t. II, p. 302.

(٣) تفسير ماوردبالمتن هو أن أهل أمالفى كانوا قد تمردوا على الحكم النرمندى وأدرك النرمنديون ما وراء هذا التمرد من خطر على سلطانهم ، فتناسوا ما بينهم من المنازعات الشخصية فخرجت الأسرة بأكلها لمحاربة المتمردين وحاصرتهم حتى بلغت القوات الصليبية الفرنسية أمالفى ، فما كان من بوهميند — وقد أدرك جدوى الحرب الصليبية من منفعة شخصية له =

ولما عاد السيد بوهيمند إلى أملاكه[1] استعد بكل ما فى طوقه للتوجه إلى الضريح المقدس ، وأخيراً ركب البحر بجيشه وفى صحبته تنكريد بن المركيز والأمير ريتشارد وأخوه رينول ، وروبرت أنز ، وهرمان دى كانى ، وروبرت سورديفال ، وروبرت بن توستانى ، وهنفرى بن رودلف ، وريتشارد بن الكونت رينوف ، وكونت رسبولو وإخوته : بويل دى شارتر ، وأوبريه دى جانيانو ، والهنفرى دى مونت سكيابوزو . وعبر الجميع البحر على نفقة بوهيمند وأرسوا فى بلغاريا حيث وجدوا وفرة بالغة من الحنطة والخمر وجميع الأطعمة النافعة .

ثم نزلوا عقب ذلك فى وادى « أندرونو پوليس » وأقاموا فى انتظار عبور بقية الجيش ، وحينذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة جيشه وتشجيع رجاله ، وحضهم على الطيبة والتواضع والكف عن تخريب تلك البلاد التابعة للنصارى ، وأمرهم ألا يأخذوا أشياء أزيد مما يحتاجون إليها فى معاشهم .

آن وقت الرحيل ، فخرجنا[2] فى العدد الجم نسير من مقاطعة ، ومن مدينة إلى مدينة ، ومن قلعة إلى قلعة ، وأفضى بنى السير إلى Castoria فاحتفينا فيها احتفاء رائعاً بميلاد السيد المسيح ، ولبثنا بها بضعة أيام باحثين فيها عما نتزود به ، غير أن أهلها أبوا علينا ذلك لشدة تخوفهم[3] منا ولم

═ إلا أن قسم عباءته أجزاءً صغيرة لتكون صلباناً لقواده، فانضم إليه فى الحال كثيرون من قواد أخيه روجر بورسا وعمه روجر صاحب صقلية راجع Chalandon, op. cit. loc. cit,

(١) كان بوهيمند أميرا على تارنت وانترانتو من أعمال ايطاليا ، راجع Chalandon, op cit., t. I, p. 288.

(٢) يلاحظ هنا استعمال ضمير المتكلم .

(٣) راجع تفصيل ذلك فى Runciman,op. cit. pp. 155-6.

ينظروا إلينا نظرهم إلى حجاج بل خيل إليهم أننا طامعون فى تخريب أرضهم قادمون للفتك بهم ، فاستولينا على الثيران والخيل والحمير ، وعلى كل ماوجدناه فى طريقنا ، فلما غادرنا « كستوريا » دخلنا إقليم Pelagonie حيث توجد قرية من قرى الملاحدة هاجمناها من جميع نواحيها ، وسرعان ماسقطت فى أيدينا ثم أضرمنا بها النار وأحرقناها بسكانها ودمرناها تدميرا .

بلغنا بعدئذ نهر « الوردار »[1] ، وإذاك تابع السيد بوهيمند زحفه مع جزء من جنده وذلك لانفصال الكونت روسينولو واستقراره هناك مع إخوته ، وجاء الجيش الإمبراطورى وهاجم الكونت كما هاجم إخوته وجميع من كانوا معهم .

ارتد تنكريد على أعقابه عندما سمع بهذا الخبر وعبر النهر سباحة وانضم إلى رفاقه ، وتبعه ألفان من الرجال اقتدوا به فى عبور النهر ، فوجدوا الدركيولية والمرتزقة يقاتلون رجالنا ، فباغتوهم واستبسلوا فى الهجوم عليهم حتى أعيوهم ، ثم أسروا جماعة منهم وقادوهم مشدودى الوثاق إلى حضرة السيد بوهيمند الذى قال لهم[2] « ما الذى حملكم أيها الأشقياء على قتل جند المسيح الذين هم جندى ، مع أنى لم أناجز قط إمبراطوركم العداء ؟ » . فأجابوه « ما كان لنا أن نقرر غير الواقع ، لقد استؤجرنا لحساب الامبراطور ، وما لنا إلا أن ننجز كل ما يأمرنا به » فأذن لهم بوهيمند

---

(1) Cf. Th. Desderises du Deszert : Geographie ancienne de la Macedoine (Paris, 1863), p 214.

(2) Cf. Raoul de Caen : Gesta Tancredi Siciliae, (R. H. Occ Cr.), t. III, pp. 607 - 10.

بالانصراف دون أن يقتص منهم . وقد جرت هذه الوقعة فى اليوم الرابع من أول أسبوع صوم الأربعين[1] .

مبارك هو الرب دائماً .

آمـــين !

— ٢ —

من وقعة الوردار إلى الاستيلاء على نيقية

سير نرمان ايطاليا ورحيل بوهيمند للقسطنطينية ،
الزعماء الصليبيون فى القسطنطينية . يمين الولاء .
— وصولهم إلى نيقية . حصار نيقية والاستيلاء عليها .

٥ — بعث الامبراطور فى الوقت ذاته إلى سفرائنا أحد رجاله وكان يوليه مكانة سامية وممن يسمونهم مواليه ليرشدنا إلى السبل الآمنة فى جميع بلاده حتى نبلغ القسطنطينية ، وفى أثناء مرورنا أمام بلدانه كان يأمر سكانها بأن يحملوا إلينا الأقوات كما فعل أولئك الذين تكلمنا عنهم من قبل ، والواقع أن هؤلاء السكان كان قد استبد بهم الخوف من عسكر السيد بوهيمند الشجعان حتى إنهم لم يسمحوا لأحد منا بمجاوزة أسوار مدنهم ، وحدث فى ذات مرة أن أراد رجالنا مهاجمة أحد الأمكنة الحصينة ، والاستيلاء عليها بحجة احتوائه على الذخائر الوفيرة ، فرفض بوهيمند العاقل طلبهم وأنكر عليهم أن يجاوزوا مكانهم براً بعهده[2] المقطوع للإمبراطور وغضب أشد الغضب على تنكريد[3] وعلى بقية الآخرين ، وجرت هذه الحادثة

(١) وكان ذلك يوم الأربعاء ١٨ فبراير ١٠٩٧ بتحقيق Brehier : Hist. anonyme, p. 24, note. 4.

(٢) يذهب Chalandon : Alexis Comnène, p. 188 إلى أن هناك اتفاقية لابد وأن تكون قد عقدت بين الامبراطور البيزنطى والقائد النرمندى بوهيمند فى أواسط شهر مايو ١٠٩٧ ، وعلى ضوء هذه الفكرة الجديدة يمكن تفسير مسلك بوهيمند الودى الذى يشير إليه صاحب المذكرات فى المتن ، على أنه يتبين مما بعد أن فى منتصف مايو كان الصليبيون وفيهم بوهيمند يهاجمون نيقيه.

(٣) يشير Raoul de Caen, pp 612 - 17 إلى المخاشنة بين بوهيمند وتنكريد دون أن يشير إلى الحامل عليها مما فسّره صاحب الحوليات هنا.

مساء ، ولما تبلَّج الغد عن صباحه خرج سكان البلد يطوفون بأرجائه وقد حملوا الصليب فى أيديهم ، ومثلوا أمام بوهيمند الذى تلقاهم بالترحاب والسرور ، ثم صرفهم من لدنه فرحين مغتبطين هادئى البال .

بلغنا بعد ذلك مدينة تدعى Serra[١] نصبنا فيها خيمنا ووجدنا بها كمية وفيرة من الذخيرة الملائمة لهذا الفصل ، وهناك عقد بوهيمند اتفاقاً[٢] مع اثنين من كبار رجال الدولة الرسميين ، دفعه حبه لها وكذلك رغبته للمحافظة على سلامة الأرض لإصدار أمره إلى رجاله بردّ جميع الحيوانات التى أخذوها نهباً ، وأدركنا بعدئذ بلدة « Rusa »[٣] فخرج أهلها الإغريق بأجمعهم للترحيب بنا ، ومضوا فرحين لتلقى السيد بوهيمند ، حاملين إلينا الكثير من المؤونة ، ونصبنا بها خيامنا يوم الأربعاء [المقدس] السابق لعشاء السيد السرى الأخير[٤] ، وهناك ترك بوهيمند كل جيشه غير مستصحب معه سوى شرذمة ضئيلة من الفرسان ، وخلَّف تانكريد على رأس جند المسيح ، ولما رأى تانكريد أن الحجاج يشترون الأطعمة تعهد من ناحيته بالابتعاد عن الطريق الرئيسى ، وسوق الشعب إلى مكان يستطيع أن يجد فيه الطعام بوفرة ، فتوغل فى واد مجهز بكل ما هو لازم للعيش ، واحتفلنا فيـــه احتفالا عظيما بعيد القيامة[٥] .

---

(١) وتقع فى مقدونيا الشرقية .

(٢) فيما يتعلق بهذا الاتفاق راجع Raoul de Caen : op. cit, pp. 611 - 2 وكان بوهيمند فى أثناء اجتيازه تسالونيكا أراد تحسين العلاقات بينه وبين الامبراطور فأوفد إليه سفارة من قبله عادت إليه وهو فى مدينة سرا هذه .

(٣) يشـــير Runciman, op. cit. I, p. 157 إلى أنها تسمى الآن Keshan ، وكان وصوله إليها يوم أول أبريل ١٠٩٧ .

(٤) هو يوم أول أبريل ١٠٩٧ .

(٥) وذلك يوم ١٥ أبريل ١٠٩٧

٦ — حين علم الإمبراطور بأن بوهيمند المعظم الجليل وأفد عليه أمر بمبالغة الاحتفاء باستقباله، وإنزاله منزلا كريما خارج المدينة(١)، فلما استقر به المقام، ونفض عنه غبار السفر بعث الإمبراطور إليه يسأله القدوم عليه لمفاوضته سراً واشترك فى هذ المقابلة أيضاً كل من جودفروى وأخيه [بلدوين]، وحينذاك كان كونت صنجيل قد اقترب من المدينة(٢)، فقلق الامبراطور أشد القلق وتميز غضباً ؛ وأخذ يدبر مكيدة تمكنه من تسخير جند المسيح لصالحه، سواء كان ذلك عن طريق المكيدة أو الخداع، غير أن العناية الإلهية صرفت عنهم كل أذى فلم تمكنه هو أو رجاله من إيقاع أدنى ضرر بهم ؛ وفى هذا الوقت بالذات [الذى كان فيه بوهيمند وجودفروى بحضرة الامبراطور] التأم فى مكان آخر شمل جميع الرجال الكرام الأصل(٣) الموجودين بالقسطنطينية، وخافوا أن يفقدوا بلدهم فدبروا أموراً غير حكيمة، وتخيلوا أن يقسم زعماء جيشنا والكونتات وجميع العظماء قاطبة يمين الولاء للإمبراطور، غير أن رجالنا رفضوا هذا العرض قائلين لهم، « إن هذا أمر مزرٍ بنا، ولا يجوز لنا أن نقسم له اليمين مهما كانت الحال فلربما يخدعنا زعماؤنا هؤلاء، فمن ذا الذى يقرّر هذا الأمر ؟ وسيقولون حينذاك إن الضرورة الملحة حملتهم حملا على الخضوع أمام مشيئة الإمبراطور ».

---

(١) وذلك فى دير القديسين كوم وداميين قرب بلاشرناى، راجع فى تحقيق هذا Brehier : op. cit. p. 29, note 4 (d'après Anne Comnène, Alexiade, pp. 86 - 96).

(٢) Raymond d'Aguiles, pp. 235-8.

(٣) فى الأصل اللاتينى « omnes majores natu » أى الكرام الأصل ؛ وقد فسرها Brehièr : op. cit. p. 30, note 1 بأصحاب الوظائف الكبرى.

وقد وعد الإمبراطور بوهيمند الشجاع — الذى كان يخافه كثيراً لأنه فرَّ أكثر من مرة بجيشه من أمامه — أن يقطعه أرضاً وراء أنطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوماً طولا وثمانية أيام عرضاً إذا أقسم بوهيمند الإمبراطور يمين الولاء دون رجاء، وعاهده الإمبراطور أنه لن ينسى أبداً وعده إليه طالما هو مقيم على يمينه[1] له وإذن فكيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان القساة هذا التصرف؟ لاشك فى أن الحاجة الملحة كانت تجبرهم على قبول ذلك.

ووعد الإمبراطور من جانبه جميع رجالنا الوفاء بما عاهد، وأن يضمن لهم السلامة بل لقد أقسم هو نفسه أنه سيرافقنا بجيشه براً وبحراً، وأنه يضمن — فى إخلاص — تموينا على اليابسة وفوق ظهر الماء، وأنه سيعمل من جانبه على تدارك جميع خسائرنا، وزيادة على ذلك فإنه لا يحب أن يشعر أحد من الحجاج — وهم فى طريقهم إلى الضريح المقدس — بشئ من الملل أو الضيق.

أما كونت صنجيل فكان مقيما فى ذلك الحين بظاهر المدينة فى إحدى الدساكر وبقى جيشه معسكراً فى الخلف[2]، وبعث الامبراطور إلى الكونت يطلب منه أن يقسم له كما أقسم الآخرون يمين الولاء والتبعية، غير أنه فى اللحظة التى أرسل فيها الإمبراطور هذه الرسالة كان الكونت قد فكر فيما يستطيع عمله للثأر من الجيش الامبراطورى، فأفهمه الدوق جودفروى وروبرت كونت فلاندر وبقية الأمراء أن ليس من العدل أن

---

(١) يتشكك Kray, Neglected Passage, p.27-8 فى هذه الجملة ويقول إنها مدسوسة على الجستا وأنها وضعت بناء على أوامر بوهيمند.

(٢) Raimond d'Aguiles, p. 238.

يمتشق الحسام ويستله لمحاربة النصارى[1]، وأضاف بوهيمند العاقل إلى ذلك قوله إنه إذا ارتكب [كونت تولوز] أى تعد ضد الامبراطور وخالف ما تعهد الزعماء له بالوفاء به فإن بوهيمند ذاته سيقف فى صف الإمبراطور، ومن ثم مضى الكونت لاستشارة رجاله ثم عاد فأقسم على المحافظة على حياة ألكسيس واحترام مكانته وشرفه وأنه لن يسمح مطلقا بأية إساءة تناله سواء أكانت هذه الإساءة من قِبله هو أم من قِبَل أحد رجاله ؛ لكنه حينما دعى[2] إلى الحفل الذى أقيم احتفاء بما قطعه الأمراء من عهد «الولاء» للامبراطور أجاب إنه لن يستجيب لهذه الدعوة أبداً حتى ولو أدى رفضه إلى قتله وهلاكه ، وفى هذه اللحظة بالذات[3] كان جيش بوهيمند قد اقترب من القسطنطينية .

٧ — ولكى يتجنب كل من تانكريد وريتشارد السالرنى القسم الإمبراطورى تسلل كلاهما وعبرا البسفور[4] سراً مستصحبين معهما جلة عسكر بوهيمند ، وسرعان مابلغ جيش كونت صنجيل القسطنطينية ومكث الكونت بها هو ورجاله ، وبقى بوهيمند أيضاً لدى الامبراطور ليتشاور وإياه حول الوسائل التى يقتضى اتخاذها لتيسير تمرير القوات الموجودة فيما وراء أزنيق، وذهب الدوق جودفروى أولا إلى نيقوميديا مع تانكريد وبقية الآخرين ولبثوا بها ثلاثة أيام .

---

(١) Ibid., p.238.

(٢) يستفاد مما أورده Albert d'Aix, p. 312 أن تلك الدعوة كانت يوم ٢٦ أبريل ١٠٩٧ وذلك فى معرض كلامه عن اقتراب جيش بوهيمند من القسطنطينية .

(٣) وذلك يوم ٢٦ أبريل ، راجع الحاشية السالفة .

(٤) Albert d'Aix, p. 313 ; Raoul de Caen, pp. 612 - 614.

ولما أدرك الدوق [جود فروى] أن ليس أمامه من سبيل يستطيع أن يقود فيه هذه القوات إلى إزنيق نظراً إلى أن الطريق الذى عبره الصليبيون الأوائل فى المرة الأولى لا يلائم جماعة كثيفة العدد كهذه الجماعة، أقول لما أدرك الدوق ذلك قدم أمام الجيش ربيئة فى ثلاثة آلاف رجل مسلحين بالفئوس والسيوف ، ووكل إليهم تعبيد هذا الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من اجتيازه إلى أزنيق ، فشقوا طريقاً عبر مضايق أحد الجبال الضخمة ، وفى أثناء عملهم هذا صنعوا صلباناً من الحديد والخشب نصبوها على صوى لتكون دليلا يسترشد به حجاجنا ، ومن ثم وصلنا قرب أزنيق عاصمة كل بلاد آسيا الصغرى وذلك فى اليوم السادس من مايو ، وأقمنا هناك معسكرنا .

* * *

وقبل وصول السيد بوهيمند مضينا نلتمس الخبز فلا نجده إلا صبابة ، حتى لقد كان الرغيف الواحد يباع بعشرين أو ثلاثين دنية[1] ، ولما قدم بوهيمند العاقل جلب معه بطريق البحر ذخيرة وفيرة ، وتوالت الإمدادات على اليابسة والماء[2] ، فشملت الفرحة الكبرى جيش المسيح .

٨ — وفى يوم صعود السيد[3] شرعنا فى مهاجمة المدينة من جميع نواحيها وبناء كباش[4] وأبراج خشبية لنتمكن من هدم أبراج المنطقة ، وتمكنا فى

---

(١) النص اللاتينى هكذا : tanta inopia panis fuit inter nos ut unus panis Venderetur xx aut xxx denariis ، أما هذه العملة فقد ظهرت منذ العصر الكارولنجى .

(٢) هذه إشارة من الكاتب إلى وفاء الإمبراطور بما تعهد به لبوهميند.

(٣) وذلك يوم ١٤ مايو ١٠٩٧ .

(٤) تذهب أنّا كومنين كما جاء فى Brehiér : Histoire Anonyme, p. 36 note3 أن آلات الحصار هذه إنما قدمها الإمبراطور ولم تكن من صنع الصليبيين ، راجع أيضاً Grousset : Histoire des Groisades, t.I,p. 29.

خلال فترة يومين من الاقتراب من المدينة بشجاعة وحماسة حتى قوّضنا حيطانها ودككنا أسوارها دكا . أما الترك الذين كانوا فى المدينة فقد بعثوا رسالة[١] لمن قدموا لنجدة البلد وختموها بقولهم « أقدموا غير هيابين ، واقتربوا آمنين وادخلوا من الباب القبلى لأنكم لن تجدوا فى هذه الناحية أحدا ما يعترض سبيلكم أو يقف فى طريقكم » .

وفى اليوم ذاته[٢] أعنى يوم السبت الذى تلى صعود السيد احتل كونت صنجيل وأسقف بوى هذه الناحية القبلية ، أما هذا الكونت القادم من ناحية أخرى[٣] والذى ترعاه العناية الربانية ويزهى بأسلحته الدنيوية فقد خرج على رأس جيشه الباسل ،وكرّ على الترك الذين كانوا يتقدمون نحونا ، ولما كان ريموند مسلحا من جميع الجهات[٤] بعلامة الصليب فقد اشتد فى الهجوم عليهم وكرّ عليهم كرة باسل وتمكن من قهرهم والظهور عليهم ، فلاذوا بالفرار مخلفين وراءهم كثيرين من الموتى ،غير أن جماعة أخرى من الترك أقبلوا لنجدة الأولين ونفوسهم تفيض بالسرور والفرح بالنصر المحقق ، وأحضروا معهم الحبال ليسحبونا مصفدين بها إلى خراسان ، ولما كانوا فى شدة النشوة فقد شرعوا فى النزول بالتتابع من ذروة تل مرتفع ،

(١) يلاحظ أن قليج أرسلان سلطان نيقية كان مشغولا فى هذا الوقت بالذات بمحاربة بيت دانشمند حول ماطية ، ولذلك لم تصل جنوده لنجدة نيقية إلا متأخرة ، راجع Michel le Syrien., p. 187 , Matthiew d' Edesse, pp. 211-2 , 215.

(٢) الوارد فى Foulcher des Chartres, p. 182 أنه فى يوم١٦ مايو ١٠٩٧.

(٣) يقصد بهذا أن كلا من الكونت ريموند الصنجيلى وأديمار دى مونتيل أسقف دى بوى كانا على رأس عسكر مستقل .

(٤) فى النص اللاتينى undi que وقد فسرها بريبيه بأن الكونت كان يضع كثيراً من الصلبان على ملابسه على حين أن سواه من المحاربين اكتفوا — كما هو معروف — بصليب واحد على أحد الكتفين أو فيما بينهما .

لكنهم كانوا كلما نزلوا واستقروا فى مكان ضربت أعناقهم بأيدى رجالنا الذين أخذوا يضعون رءوس القتلى فى المقاليع ثم يقذفون بها إلى المدينة ليبثوا الذعر بين سكانها الأتراك(١).

بعد ذلك أخذ كونت صنجيل وأسقف بوى يتبادلان الرأى فى الوسائل التى تمكنهم من هدم برج قائم أمام معسكراتهم، واتفق الرأى على إنفاذ فريق من الرجال لهدمه، يحميهم حاملو الأقواس ورماة النشاب. فنهض الرجال لما ندبوا له وشرعوا فى الحفر حتى بلغوا أساس السور، وأقاموا أكواما من الكتل والخشب ثم أضرموا فيها النيران، فلما أقبل المساء انهار البرج، غير أن رحى القتال وقفت بين المتحاربين إذ كان الظلام قد لفّ الكون فى سدوله إذ ذاك، فاغتنم الترك هذه الفرصة وخرجوا بقطع من الليل ورمموا الحائط ترميما قويا، حتى إذا ذرّ النهار قرنه، أصبح من المستحيل علينا أن ننالهم بأدنى أذًى من تلك الناحية.

سرعان ما وصل روبرت [كونت هيوز] النرمندى والكونت إيتين(٢) وكثيرون غيرهما، ثم روجر دى بارنفيل؛ فحاصر بوهيمند المدينة من الناحية الأمامية، ووقف إلى جانبه تنكريد، ثم أقبل الدوق جودفروى وكونت فلاندر يعاونه روبرت دوق نرمنديا؛ ثم الكونت صنجيل ومعه أسقف بوى، وبلغ الحصار الذى ضرب على المدينة من ناحية البر حدًّا من الشدة لم يستطع أحد ما معه من الخروج من المدينة أو الدخول إليها، وفى هذه اللحظة وقف الجميع وقفة رجل واحد، فمن ذا الذى يستطيع إحصاء جيش المسيح؟

---

(١) Cf. Raymond d'Aguiles, p. 239, Albert d'Aix, pp. 319—321.

(٢) هو اتين أو استيفن كونت بلوا وزوج اديلا ابنة وليم الفاتح.

أظن أنه لم يتأت ولن يتأتى لأحد ما أن يبصر مثل هذا العدد الكثيف من الفرسان[1] وهم فى غاية التأهب والاستعداد !

بيد أنه كان يوجد فى إحدى نواحى المدينة بحيرة عظيمة[2] قد أرسى الترك فيها قواربهم ، ومن ثم كان فى قدرتهم الخروج والعودة محملين بالعلف والخشب وغير ذلك من الغلات ، وبعد أن عقد زعماؤنا مؤتمراً للتشاور فيما بينهم أرسلوا إلى القسطنطينية الرسل وكلفوهم دعوة الإمبراطور لإنفاذ السفن إلى شفتوت حيث يوجد بها ميناء ، وطلبوا إليه أن يأمر بجمع الثيران وسوقها عبر الجبال والغابات إلى مقربة من البحيرة ، وسرعان ما تم ذلك فى الحال وأرسل الإمبراطور فى الوقت ذاته مرتزقته[3] ولم ير القوم إنزال القوارب فى الماء يوم وصولها بالذات بل أنزلوها البحيرة حين أقبل الليل ، فاعتلاها المرتزقة وهم فى كامل سلاحهم ، فلما تنفس الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهى فى أحسن نظام تجدف وسط البحيرة متجهة شطر المدينة ، فما كادت عيون الترك تقع على هذا المنظر حتى إستولت عليهم الحيرة وتساءلوا « أتراها لقومهم أم لرجال الإمبراطور ؟ » وما كادوا يعلمون أنها نجدة إمبراطورية حتى استبد بهم الرعب القاتل واستخرطوا

(١) قدرهم Foulcher de Chartres, p. 333 بمائة ألف فارس غير من كان هناك من بقية المقاتلين، وهو عدد يجب أن ينظر إليه بعين التشكك .

(٢) وهى بحيرة ازنيق الواقعة إلى الجنوب من مدينة نيقية ، وتسمى أحياناً Ascemus راجع فى ذلك Raymond d'Aguiles., pp. 339 - 40; Albert d'Aix pp. 323 - 4,

(٣) تذهب أنا كومنين — بناء على ما ورد فى Runciman, History of the Crusades, vol. I, p. 180, n. 2 إلى أن أباها الامبراطور أرسل قوات بيزنطية بقيادة Taticius و Tzitas نجدة للصليبيين ، وهذا يخالف ما أشار إليه. Brehier, op. cit. loc. cit فى تعليقه على العبارة الواردة بالمتن حيث ذكر أن هذه النجدة كانت بقيادة مانويل بوتوميتس الذى كان فى الواقع مشرفا على النجدة البحرية .

فى البكاء ، وعلت أصواتهم بالنحيب ، بينما كان الفرنجة فرحين يمجّدون الرب .

ولما أيقن الترك فى النهاية أنهم لن يستطيعوا تلقى أية نجدة من جيوشهم بعثوا إلى الإمبراطور سفارة تحمل إليه استعدادهم لتسليمه البلد إذا سمح لهم بالعودة بنسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون ، فازدهى الإمبراطور غرورا ودفعه سوء الطوية إلى الأمر بإخراجهم سالمين ، وإرسالهم آمنين مطمئنين إلى القسطنطينية المثول أمام حضرته ، وعاملهم باللين ليكونوا على أهبة لنصب الكمائن للفرنجة ووضع العقبات فى سبيلهم[1] .

استمر هذا الحصار سبعة أسابيع وثلاثة أيام[2] واستشهد فيه كثير من رجالنا وصعدت أرواحهم الطاهرة إلى الله مغتبطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا فى سبيل تمجيد اسم المسيح ، وصعدت نفوسهم منتصرة إلى السماء مرتدية ثياب الشهادة[3] البيضاء وهى تهتف كلها فى صوت واحد « حتى متى أيها السيد القدوس الحق لا تقضى وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض ، أنت يامن تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد[4] . آمين ! » .

---

(١) فيما يتعلق بمسلك الامبراطور إزاء الصليبيين راجع Foucher des Chartres, p. 333; Raymond d'Aguiles., pp. 239-40.

(٢) من ٦ مايو إلى ٢٦ يونيو .

(٣) راجع رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٦ : ٩ ، ١١ ؛ ٧ : ٩ .

(٤) رؤيا يوحنا اللاهوتى ، ٦ : ١٠ .

— ٣ —

زحف الصليبيين فى آسيا الصغرى

وقعة اسكى شهر (أول يوليو ١٠٩٧ م)

٩ — فى هذه الأثناء — وقد استسلم البلد — كان الترك سائرين إلى القسطنطينية لملاقاة الإمبراطور الذى تزايدت فرحته لعودة إزنيق إلى سلطانه فوزع كثيرا من الصدقات على فقرائنا.[١]

وفى اليوم الأول لمغادرتنا البلد وصلنا إلى جسر[٢] استرحنا عنده مدة يومين ، وفى اليوم الثالث استيقظ رجالنا قبل انبلاج تباشير الفجر حيث كان الليل لا يزال مرخيا أسداله على الكون ، ولم يستطيعوا شق نفس الطريق معا فانقسموا فريقين كانت المسافة الفاصلة بينهما تقدر بمسيرة يومين ولقد رحل مع الفريق الأول بوهيمند وروبرت دوق نرمنديا وتنكريد الحكيم وكثيرون غيرهم .

وفى اليوم الثالث كر الترك كرة عنيفة على بوهيمند ورفاقه وشرع الأعداء يصرون على أسنانهم ويصرخون صرخات عالية مدوية وهم

---

(١) وزع الامبراطور كثيرا من الصدقات والحلم على الفقراء والفرسان على السواء ، راجع فى ذلك Foucher, p· 333; Epistulae et Chartae p. 145.

(٢) يسمى بجسر جكسو ويقع عند بلدة Leuce وهنا عقد الصليبيون مؤتمرا للتشاور وان لم يشر إليه صاحب المذكرات ، ويؤكد Runciman, History of the Crusades, vol. I, pp. 186-7, note 1. بعد تحقيقه الشخصى أن الوقعة لم تكن فى اسكى شهر (دوريليم) وإنما فى سهل سارى سو Sari-Su ، راجع أيضا مقالتى دانشمندية واسكى شهر فى الدائرة.

يردّدون بلسانهم كلمة شيطانية(١) لا أعرفها ، فلما رأى بوهيمند الحكيم هذه الكثرة من الأتراك مدفوعين وهم يزمجرون فى صوت مَن به مس من الشيطان بادر إلى إرجال الفرسان من على دوابهم ، وأسرع فى نصب الخيمة التى قبل أن يتم إقامتها أعاد قوله على جميع الفرسان « أيها المبجلون ويا فرسان المسيح الأشاوس ، ها نحن أولاء الآن فى انتظار معركة صعبة فاصلة والعدو محدق بنا من كل جانب ، ومن ثم فليمض الفرسان قدما إلى اليمين فى شجاعة ، وليبادر الرجالة إلى نصب الخيام وليكن رائدهم العقل »

فلما تم الفراغ من ذلك كله أحاط بنا الترك من كل جانب وأخذوا فى قتالنا ورمينا بالحراب ورشقنا بالنبال من مسافة بعيدة عجيبة ، فأجمعنا أمرنا على الخروج لصدهم رغم عدم قدرتنا على مقاومتهم وعجزنا عن احتمال وطأة هذا العدد الغفير من الأعداء ، بل إن نساءنا أسدين إلينا فى ذلك اليوم معونة عظمى ويداً مشكورة إذ حملن الماء لرجالنا ليطفئوا ظمأهم ، ولم ينقطعن عن حثهم على القتال والدفاع . وأسرع بوهيمند العاقل فطلب من الآخرين — وأعنى بهم كونت صنجيل والدوق جودفروى وهيج الكبير وأسقف بوى وبقية فرسان المسيح — الإسراع والمبادرة للسير إلى القتال قائلا لهم « من شاء أن يساهم اليوم بنصيب فى الصراع فليتقدم مصلاتاً غير خوار » . وسرعان ما كان الدوق جودفروى المعروف بإقدامه وشجاعته وهيج العظيم أول القادمين بقواتهما ؛ ولم يلبث أسقف بوى أن قفاهما بجنده ثم تلاه كونت صنجيل فى جيش كثيف العدد :

استولت الدهشة على رجالنا فراحوا يتساءلون من أين تمكن من

---

(١) تشير الحوليات هنا إلى عبارة « الله أكبر » يدل على ذلك ما أورده Raoul de Caen, p. 636 حيث كان المسلمون يهتفون بقوله « Alla Chibar ».

الخروج هذا العدد العظيم من الترك والعرب والشرقيين وغيرهم ممن يستحيل إحصاؤهم ، ذلك أن هذا الجنس الملعون المحروم من رحمة الرب غطى بحشده الكثيف كافة المرتفعات والجبال والأودية والسهول سواء ما كان منها داخل المدينة أو خارجها ، وجرت بيننا مشاورات ودية قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الرأى « اعملوا ماوسعكم الجهد ، واصطنعوا كل وسيلة للاتحاد فى سبيل دين المسيح ونصر الصليب المقدس ، لأنكم إذا أرضيتم الرب اليوم انقلبتم أغنياء موفورى الثراء » .

لم يلبث شمل مقاتلينا أن التأم وانتظمت الصفوف ، وكان على الجناح الأيسر كل من بوهيمند العاقل ، وروبرت النرمندى وتنكريد القطن ، وروبرت دى أنزا ، وريتشار السالرنى ؛ وتقدم أسقف بوى من مرتفع آخر للإحداق بالترك الكفرة ؛ وكان على الجناح الأيسر كذلك الفارس المشيع الجنان « ريموند كونت صنجيل » ، وعلى الميمنة الدوق جودفروى والفارس المقدام كونت فلاندر وهيج العظيم وكثيرون ممن أجهل أسماءهم[١] .

وعند اقتراب فرساننا بادر الترك والعرب والشرقيون والغلمان[٢] وجميع الشعوب البربرية إلى الحرب السريع من مضايق الجبال ومنافذ السهول ، وكان عدد الترك والفرس والزعاع والشرقيين والغلمان وغيرهم من الوثنيين يبلغ ثلاثمائة وستين ألف مقاتل ، هذا عدا العرب الذين لا يعرف عددهم غير

(١) Cf. Albert d'Aix, p. 331.

(٢) أوثر كلمة « الغلمان » العربية ترجمة لكلمة Angulani اللاتينية ، لا سيما وأن بريبيه يقول : الأنجولان « Un Corps de troupe de l'armé Turque » ، أما المراجع العربية كابن القلانسى فكثيرا ما تذكر لفظ « الغلمان » ويقصد بها فريق من العسكر يستعان بهم فى الحرب ، ولم أجد هذا اللفظ مستعملا قبل هذا التاريخ فيما بين يدى من المراجع العربية .

الله ، وفروا مسرعين إلى خيامهم إسراع الظليم ، بيد أنهم لم يستطيعوا المكث بها طويلا إذ مالبثوا أن تابعوا الهرب ونحن فى آثارهم نقتل فيهم طيلة يوم كامل ، وأصبنا غنيمة كبيرة من الذهب والفضة والخيل والحمير والجمال والمواشى والثيران وأشياء كثيرة غير تلك مما نجهلها ، وما كان لأحد من رجالنا أن ينجو هذا اليوم لولا وجود السيد معنا فى هذه المعركة ولولا أنه أرسل إلينا على جناح السرعة الجيش الآخر [١] ، فقد استمر القتال من غير انقطاع من الساعة الثالثة إلى التاسعة ، إلا أن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يرض أن يهلك فرسانه أو أن يقعوا فى أيدى أعدائهم ، فبعث إلينا هذه النجدة على جناح السرعة ؛ لكن قتل فى هذا اليوم اثنان من فرساننا الشرفاء هما جود فروى دى مونت سيكيا بوزو ووليم بن المركيز أخو تنكريد ، كما أن غيرهم من الفرسان والمشاة الذين أجهل أسماؤهم لقوا مصرعهم .

فمن هذا الحكيم العالم الذى يجرؤ على وصف لباقة الترك ومواهبهم الحربية ومقدار بسالتهم ؟ لقد كانوا يظنون أنهم يخيفون أمة الفرنجة بتهديدهم إياهم بنبالهم كما أخافوا العرب والشرقيين والأرمن والسريان والإغريق ؛ لكن إذا أراد الرب ألا يتغلبوا على رجالنا فلن يستطيعوا إلى الغلبة سبيلا . ولقد كان حقاً ماقيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يسمّى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك [٢] ، وسأقول الحقيقة ولن يستطيع أحد ما مناقضتى ، وهى لو أنهم آمنوا إيماناً تاماً بالمسيح واتبعوا

---

(١) يقصد به جيش ريموند كونت صنجيل .

(٢) تشير الوثائق هنا إلى الأسطورة التى تزعم أن الفرنجة والترك منحدرون من نبعة تورانية .

النصرانية المقدسة ، ولو تأتى لهم أن يعترفوا برب واحد فى ثلاثة أقانيم وهو ابن الله المولود من العذراء ، الذى تألم ثم قام من بين الأموات وصعد إلى السماء أمام أعين تلاميذه ،وأرسل التعزية الكاملة بالروح القدس ، ولو تأتى لهم أيضاً أن يؤمنوا إيماناً صادقاً عادلا بأن له الحكم فى السماء والأرض (١) لما وجدنا شخصاً ما يمكن أن يساويهم فى القوة والشجاعة وفن القتال .

وشاءت إرادة الرب أن يلاقوا الهزيمة على أيدى رجالنا . وكانت هذه الوقعة يوم أول يوليو .

— ٤ —

زحف الصليبيين على أنطاكية

عبورهم آسيا الصغرى . ذهاب بلدوين وتنكريد إلى طرسوس .
عبور أرمينيا الصغرى وإقليم كبادوشيا .
بلوغهم أبواب أنطاكية .

١٠ — بعد انهزام الترك — أعداء الرب والمسيحية المقدسة — هزيمة تامة وهروبهم مدة أربعة أيام وأربع ليال سويا جاء الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الأكبر قد فر إلى أزنيق ، حيث صادفه عشرة آلاف عربى فقالوا له : « أيها الشقى ، ويا أتعس الخلق جميعاً ، ما الذى حملك على الهروب ؟ » فأجابهم سليمان « حين انهزم الفرنجة من قبل كنت أحسب أنى سآخذهم مكبلين مأسورين ، ولما أردت تقييدهم جماعة بعد أخرى ، أبصرت وراءهم شعباً كثيف العدد أكثر من الدبا ، ولو تأتى لكم أنتم أو غيركم أن تكونوا حاضرين لشاهدتم جموعهم تغطى كافة الجبال والتلول والوديان

(١) إشارة إلى قانون الإيمان الكاثوليكي .

والسهول ، ولم نكد نراهم حتى استبد بنا الفزع الشديد وتابعنا المسير ، وكدنا أن نلقى أنفسنا بين أيديهم من فزع الخوف وهوله ، فإن كنتم مصدقىّ فيما أقول فارحلوا من هاهنا لساعتكم، إذ لو عرفوا خبر قدومكم لما بقى أحد منكم حيا ، فلما سمعوا قوله هذا ولوا الأدبار وتشعب صدعهم وانسابوا فى كل نواحى آسيا الصغرى .

أما نحن فلم نكف عن تعقب أولئك الترك الطغاة الذين كانوا يفرون كل يوم من أمامنا (١) ، وكانوا كلما بلغوا بلداً أو مكاناً حصيناً كذبوا على سكانه ومكروا بهم قائلين لهم « لقد هزمنا جميع المسيحيين ، وكان نصرنا عليهم عظيما حتى إنه لن يجرؤ أحد ما منهم أبداً على الوقوف أمامنا ، فدعونا ندخل عندكم » ، ولا يكادون يدخلون البلد حتى يسلبوا الكنائس وينهبوا البيوت وكل ما يصادفهم ، كما يغتصبون ما لدى أهله من الجياد والحمير والبغال وجميع مالديهم من الذهب والفضة ، وكل ما يتأتى لأيديهم أن تمتد إليه ثم ينطلقون بأبناء النصارى ، ويأتون على كل ما يستطاع الانتفاع به حرقاً أو هدما ، ... كل ذلك وهم يفرون من ملاقاتنا ويفزعون منا ؛ وقد تتبعناهم عبر الصحارى والأراضى التى خلت من الماء والحياة فحاق بنا الخطر ، وكدنا ألا نخرج أحياء (٢) ، وبلونا مضض الجوع وحرقة الظمأ ، ولم نجد ما نمسك به رمقنا سوى الشوك الذى كنا نقتلعه ونسحقه بأكفنا ، فكان هو الطعام الذى عشنا عليه ونحن فى أشد حالات الضنك ، وقد نفق منا معظم جيادنا حتى اضطر الكثيرون من فرساننا للترجل، ودفعنا نقص المطايا

---

(١) كان هذا بعد راحة يومين ، راجع Foucher, p. 336

(٢) يلاحظ هنا أن هذه الوثائق هى التى تنفرد من بين جميع ما كتب فى تلك الناحية بذكر الطريق الذى سلكه الصليبيون ، راجع المقدمة .

إلى استعمال الثيران بدلا من جياد القتال . وفى وسط هذه الحاجة الملحة استعملنا الماعز والخراف والكلاب لحمل أمتعتنا .

* * *

دخلنا بعد ذلك منطقة خصيبة تفيض بالمأكولات والأطايب وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من قونية التى أشار علينا أهلها بأن نحمل معنا كميات أخرى وفيرة من المياه لأننا سنفتقد الماء فلا نجده مسيرة يوم كامل ، وبلغنا كذلك نهراً عسكرنا عنده مدة يومين ، وشرع أعداؤنا فى التقدم أمامنا حتى أفضى بهم السير إلى ناحية هرقلية حيث كان هناك فريق كبير من الترك متأهباً لملاقاة جند المسيح والبحث عن الطرق المؤدية لإيذائهم ، فلم يكد جند الرب القوى يرون هؤلاء الترك حتى استبسلوا فى الهجوم عليهم ، وحملوا فى ذلك اليوم أيضاً على عدونا الذى أسرع فولى مدبراً غير مقبل اشبه بسهم قد انطلق من قوسه إثر ضربة قوية صائبة . وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ولبثنا بها أربعة أيام (١) .

وهناك انفصل تانكريد بن المركيز عن الآخرين ، وحذا حذوه الكونت أخو الدوق جودفروى ، ودخلا معا وادى Bothrentot ولم يلبث تانكريد أن رحل وحده على رأس فرسانه وانطلق بهم حتى بلغ طرسوس ، فخرج الترك لصده وهبّوا لدفعه متجمعين فى عصبة واحدة واستعدّوا لقتال النصارى ، فلما تدانى رجالنا لحربهم لاذ العدو هاربا ونكص على عقبيه إلى المدينة مسرعا ، غير أن تانكريد فارس المسيح ثنى عنانه المضروب وضرب معسكره أمام باب المدينة .

وصل من ناحية أخرى الكونت بلدوين (٢) مع جيشه سائلا تانكريد

(١) هى المدة من ١٠ سبتمبر ١٠٩٧ إلى ١٣ منه .

(٢) حوادث هذه الفترة واردة بتفصيل أدق فى Raoul de Caen, pp. 629 - 41; Albert d'Aix, pp. 342 - 50.

أن يأذن له بمقاسمته المدينة ، فأجابه تنكريد « إننى أرفض كل قسمة معك » فلما أرخى الليل سدوله فر جميع الترك المذعورين ، وحينئذ تستر سكان المدينة بالظلام الدامس وخرجوا هاتفين بصوت عال « بادروا أيها الفرنجة المنتصرون ، بادروا فإن الترك الذين اضطربوا خوفا قد انصرفوا جميعا فى آن واحد » .

ولما تنفس الصباح قدم أشراف البلد وسلموا المدينة من تلقاء أنفسهم وقالوا للمتنازعين حول هذا الموضوع « أقصروا أيها السادة أقصروا ، إننا نطلب إليكم ونسألكم أن تسوّدوا علينا هذا الأمير [تانكريد] الذى استبسل أمس فى محاربة الترك » . إلا أن الكونت بلدوين المحبوب احتج وحاجّ تانكريد بقوله « فلندخل المدينة معا وننهبها وليقم على حراستها من يصب النصيب الأوفى ، وليحتلها من يستطع غزوها ! » فعاد تانكريد الشجاع يقول « ما أبغض هذا المسلك إلى نفسى وأبعدها عنه ، إنى لا أريد أن أسلب النصارى ، ولقد اختارنى رجال هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواى أميرا » ، ثم لم يشأ تانكريد الشجاع أن يذهب أكثر من هذا فى مناضلة الكونت بلدوين ذى الجيش القوى وترك المدينة طوعا أو كراهية ، وارتد بشجاعة مع جيشه ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هامتان هما أذنة والمصيصة ، كما دان له كثير من الحصون .

١١ — ومع ذلك فقد تقدّم الجيش العظيم وريموند كونت صنجيل وبوهيمند الحذاق والدوق جود فروى وكثيرون غيرهم ودخلوا بلاد الأرمن ظمآنين إلى دماء الترك متعطشين لها ، وأفضى بهم السير أخيرا إلى حصن شديد المناعة وقفوا حياله عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه «سيمون» من أهل البلد فسألهم أن يكلوا إليه أمر الدفاع عن تلك البقعة من

الأرض ضد محاولات أعدائه من الترك ، فمنحه الفرنجة إياها ، وأقام بها مع أبناء جنسه .

ثم غادرنا تلك الناحية ووصلنا — ناعمى البال — إلى « قيصرية » من أعمال كبادوشيا ، ثم رحلنا إلى مدينة[١] رائعة فخمة وفيرة الغنى كان الترك[٢] قد ظلوا مقيمين على حصارها ثلاثة أسابيع قبل قدومنا ، غير أنهم عجزوا عن التغلب عليها ، بيد أننا ما كدنا نبلغها حتى بادرت إلى الاستسلام لنا وهى فرحة أشد الفرح ، وقام أحد الفرسان واسمه بطرس الأبوسى[٣] Petrus de Alpibus وسأل جميع السادة أن يقطعوه إياها ليدافع عنها بكل ما وسعه الإخلاص من أجل الرب والضريح المقدس وفى سبيل السادة والإمبراطور ، فانعقد الرضاء بالإجماع على إقطاعه إياها .

فلما كانت الليلة التالية علم بوهيمند أن الترك الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة قد سبقونا فى كل ناحية ، فما لبث بوهيمند أن تأهب هو وفرسانه وحدهم دون سواهم لمطاردتهم أنّى كانوا ، إلا أنه لم تتهيأ له مصادفتهم .

بلغنا بعد ذلك مدينة تسمى چكسو Coxon ، وكانت زاخرة بمواد المئونة التى كنا فى مسيس الحاجة إليها ، وسرعان ما أوطأنا مسيحيوها[٤] فناءهم واستسلموا لنا ، فلبثنا بينهم ثلاثة أيام فى أرغد حال ، واستطاع رجالنا أن يستردّوا عافيتهم تمام الاسترداد .

---

(١) وتعرف باسم مدينة كومانا Comana

(٢) المقصود بالترك هنا « الدانشمنديون » .

(٣) كان بطرس الأبوسى من الفرسان البروفنساليين ، وقد قدم مع روبرت جسكارد إلى الشرق ثم دخل فى خدمة بيزنطة ، راجع Hagenmeyer, op. cit. p. 150

(٤) يرجح الأستاذ بربييه op. cit. p. 63, N. 2 أنهم من الأرمن .

ولما علم الكونت ريموند [الصنجيلى] بارتداد الترك القائمين على حراسة أنطاكية أطبق تدبيره هو ومشاوروه على المبادرة بإرسال بعض فرسانه لاحتلالها بسرعة [١] ، ومن ثم اختار أولئك الذين أراد أن يكل إليهم أمر هذه المهمة وأعنى بهم الفيكونت بطرس القشتالى وولیم دی مونبليیه وبطرس دی روییه ، وبطرس ريموند دوتبول ، وأنفذ معهم خمسمائة فارس ، فساروا جميعاً فى وادٍ يقع بإحدى ضواحى أنطاكية حتى بلغوا حصنا من حصون البوبليكان ، وهنا تناهى إليهم الخبر باحتلال الترك للمدينة وباستعدادهم للاستبسال فى الذود عنها ، فانفصل بطرس دی روییه بمن معه ، حتى إذا كان مساء اليوم التالى — وقد شارف أنطاكية — دخل وادى الروج [٢] ، ووجد به فريقا من الترك والشرقيين فناجزهم القتال ، وفتك بثلة كبيرة منهم ، ثم قصّ الباقين فى عنف ، وما كاد الأرمن النازلون بهذه الناحية يرون فداحة الهزيمة التى أنزلها بطرس بالعدو حتى أذعنوا له ، ودانت له روبحا كما استسلم له كثير من الحصون الأخرى .

أما نحن الذين بقينا فى چكسو فقد غادرناها وتوغلنا فى جبل مفزع يضرب بقنته إلى السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقا بالغاً ، وسرنا فى الطريق المجاور له ، ولم يستطع أحدنا مزاحمة الآخر فى التقدم ، وكانت الجياد تسقط فى الأودية ، وكان كل فرس حمولة يجرّ فرساً آخر وراءه ،

---

(١) الواقع أن مغادرة السلاجقة لأنطاكية لم تكن سوى إشاعة كاذبة ، فقد أكدّت الأحداث التالية للصليبيين أنها لا زالت فى أيدى أصحابها وأن النجدات السلجوقية كانت لا تزال تترى عليها ؛ وكان هذا العمل من ريموند الصنجيلى تسرعا إذ لم يستشر أحدا من كبار الصليبيين كما أنه لم ينتظر عودة بوهميند الذى كان قد انفصل قبل ذلك بقليل فى قصّ أثر الدانشمنديين ، راجع Runciman op. cit, p. vol. I, pp. 191 - 2

(٢) وتعرف فى المراجع اللاتينية الغربية باسم Rusa ، أما واديها فيقع إلى الشرق من أنطاكية على الطريق إلى حلب .

وارتسمت دلائل الحزن على الفرسان أجمعين ، وأخذوا يلطمون أنفسهم بأيديهم غما وكربا ، وراحوا يتساءلون عما يصنعون بأنفسهم وأملحتهم ، فمضوا يبيعون فروسهم ومجنّاتهم وخوذاتهم لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاث وخمس دانيات أو بما لا يكاد يساوى شيئاً ، أما العاجزون عن بيعها فراحوا يطرحونها عن كواهلهم دون ما ثمن ثم يتابعون سيرهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعون وصلنا[1] إلى البلدة المسماة « مرعش » فخفت سكانها لاستقبالنا فرحين غاية الفرح ، وحملوا إلينا ذخيرة وفيرة فأصبحنا فى رغد رغيد ، وأقمنا بها منتظرين وصول السيد بوهيمند .

أخيراً بلغ فرساننا الوادى[2] الذى تقع به مدينة أنطاكية الملوكية : عاصمة كل بلاد الشام قاطبة التى أعطاها[3] السيد عيسى المسيح إلى بطرس أمير الحواريّين ليرجعها إلى عبادة الدين المقدس ، وهو الذى ذهب وحكم مع الله الآب فى عالم الروح القدسى .

له المجد دائما إلى الأبد .

آمـــين !

---

(١) كان وصولهم إياها يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧ ، راجع فى ذلك تحقيق Brehier, op. cit. p. 65, Note 3.

(٢) يقصد بذلك وادى العاصى .

(3) Cf. Runciman , A Hist. of Crusades, vol. I, p. 213.

— ٥ —

بدء حصار أنطاكية

٢٠ أكتوبر إلى ديسمبر ١٠٩٥

بدء الحصار . الاستيلاء على حصن حارم . المجاعة فى المعسكر الصليبى .

١٢ — حين أخذنا فى الاقتراب من جسر الحديد وجد كشافتنا — الذين جرت عادتهم أن يسبقونا على الدوام — أمامهم فئة قوية من الترك يغذون المسير لنجدة أنطاكية ، فلم يكن منهم إلا أن تقدموا — يداً واحدة وقلباً واحداً — لمهاجمة الأتراك ، وكتبت لهم الغلبة عليهم بعد أن قذفوا الرعب فى قلوب أولئك البرابرة الذين لاذوا بأذيال الفرار وبعد أن لقى الكثيرون منهم مصرعهم فى هذه الوقعة(١) . ولما كان لواء النصر قد عقد على مفرق رجالنا فقد أصابوا — بفضل رعاية الرب إياهم — غنيمة هائلة من الخيول والجمال والبغال والحمير المحملة بالطعام والشراب .

وأخيراً وصل رجالنا إلى شاطىء النهر(٢) وعسكروا عنده ، وفى الحال ذهب بوهيمند العاقل مع أربعة آلاف فارس وضرب خيامه أمام أحد أبواب المدينة حتى لا يمكن أحداً من دخولها خفية أو مغادرتها سراً تحت جنح الظلام ، ووصلوا إلى أنطاكية فى اليوم التالى وهو ظهر اليوم الرابع من البطالة الذى هو اليوم الثانى عشر قبل أول نوفمبر(٣) ، فحاصرنا ثلاثة

---

(١) كانت هذه الوقعة يوم ٢٠ أكتوبر بناء على ما ورد فى Epistulae et Chartae, Letter No. I, p. 145.

(٢) يقصد بذلك نهر العاصى .

(٣) يقصد يوم ٢١ أكتوبر ، راجع Epistulae et Chartae, loc. cit.

أبواب من أبواب المدينة حصارا فعّالا ، ولم نجد مكاناً ميسّرا لضرب الحصار من الناحية الأخرى ، إذْ كان يكتنفنا جبل شامخ الذرى لم يترك لنا غير شِعْب بالغ الضيق .

أما أعداؤنا الترك الذين كانوا داخل المدينة فقد استولى عليهم الجزع منا استيلاءً شديداً أبقاهم خمسة عشر يوماً جامدين لا يحرّكون ساكناً ، ولم يجرؤ أحد منهم على مهاجمة فردٍ ما من جماعتنا ، ولم نكد نضرب معسكراتنا حول أنطاكية حتى وجدْنا فى هذه الناحية وفرة بالغة من الأعناب الناضجة ومخابىء مملوءة بالقمح وأشجاراً مثقلة بالفاكهة ، كما عثرنا على شتّى ضروب الأطعمة الصالحة للأكل .

أما الأرمن والسريان الذين كانوا داخل المدينة فقد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار ، وكانوا موجودين بيننا كل يوم ، بينما بقيت نساؤهم فى المدينة ، وكانت عادتهم أن يتقصّوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شىء إلى أولئك المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، فلما ألمّ الترك كل الإلمام بجميع ما يتعلّق بنا ووقفوا على خبرنا شرعوا يغادرون المدينة شرذمة بعد شرذمة ، ومضوا يحْدقون بحجاجنا ، ولم يكونوا يتربصّون لنا فى ناحية واحدة بل كنا نجدهم يكمنون فى كل الجهات ، فآونة نلقاهم فى طريقنا إلى البحر ، وآونة أخرى نصادفهم فى طريقنا إلى الجبل .

كان يوجد على كثب من هذه الناحية حُصن يدعونه حصن حارم ، قد كمن فيه عدد جمّ من أبسل الأتراك الذين طالما أقضّوا مضاجع رجالنا ، فلما علم سادتنا بذلك اشتد جزعهم وبعثوا كثيرين من فرسانهم ربيئة أمامهم لكشف موقع الأتراك ، حتى إذا تهيأ لفرساننا الذين يفتشون

عنهم كشف مكانهم مضوا لملاقاتهم ، وأخذ رجالنا يتقهقرون تباعاً أمامهم حتى بلغوا البقعة التى يعرفون أن بوهيمند يعسكر فيها هو وجنده ، ولقى اثنان من رجالنا مصرعهما فى هذا الارتداد ، فلمّا صكّ هذا النبأ سمع بوهيمند اندفع هو ورجاله فكان بطل المسيح الأشوس ، وضاعف المتبربرون هجومهم على رجالنا الذين كانوا دونهم عدداً ، ومع ذلك فقد احتدم القتال بين الفريقين وهلك الكثيرون من أعدائنا ووقع غيرهم فى الأسر ، ثم سيقوا حيث ضربت أعناقهم أمام باب المدينة مبالغة فى زيادة آلام مَن بداخلها وتنكالاً بهم .

أما الآخرون فقد غادروا المدينة وتسلقوا أحد الأبواب وأخذوا يفوّقون إلينا نبالهم التى راحت تتساقط فى ناقلة معسكر بوهيمند تساقط المطر ، وأصيبت إمرأة برمية قوس جندلتها .

١٣ — ومن ثم التأم شمل مقدّمينا وعقدوا مجلساً للتشاور فيما بينهم فقالوا : لنبنِ قلعة على قمة جبل مرقب كى نأمن على أنفسنا خطر الترك وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما كاد يتم بناؤ القلعة حتى تناوب زعماؤنا الدفاع عنه واحداً تلو الآخر .

لكن حدث أن شح القمح قبل عيد ميلاد المسيح ، وأخذت جميع الأقوات فى النقصان ، وأصبحنا لا نكاد نجرؤ على مغادرة المعسكر ، وعدنا لا نجد فى منطقة المسيحيين شيئاً مما يمكن أن نتبلغ به ، زد على ذلك أن لم يجسر أحدنا على اقتحامً أرض المسلمين إن لم يكن فى النفر العديد والحشد الكثيف ، وإذ ذاك عقد ساداتنا مجلساً تشاروا فيه حول اصطناع الوسائل اللازمة لحكم شعب كبير العدد كهذا الشعب ، فانعقد إجماعهم بعد المشاورة على أن ينهض فى الحال فريق من رجالنا ويقوموا ما وسعهم الجهد

بجمع الأقوات ولضمان حماية الجيش من ضربة تأتيه من الخلف ، كما اتفقوا على أن يظل الباقون فى المعسكر لحراسته[١] ، ثم قال بوهيمند « أيها السادة وأيها الفرسان الفطنون : إننى ذاهب مع كونت فلاندر إذا شئتم هـذا ورأيتموه خيراً ».

وبعد أن احتفوا احتفاء عظيم الفخامة بعيد الميلاد خرجوا يوم الاثنين — ثانى أيام البطالة — فى أكثر من عشرين ألف فارس وراجل[٢] ، ودخلوا سالمين آمنين منطقة المسلمين التى كانت تزخر بكثير من الترك والعرب والشرقيين القادمين من بيت المقدس ومن دمشق وحلب وغيرها من البلدان لشد أزر حامية أنطاكية ، فلما ترامى إلى سمعهم نبأ زحف الجيش المسيحى على بلادهم تأهبوا لمحاربة النصارى ، لذلك ما كادت فحمة الليل تتلاشى أمام تباشير الفجر حتى كانوا قد بلغوا الناحية التى تجمعت فيها قواتنا ، وانقسم أولئك المتبربرون قسمين أحدهما أمامنا ، والآخر خلفنا قصد الإحداق بقواتنا من كل النواحى . إلا أن كونت فلاندر الهمام — المسلح بإيمانه وبشارة الصليب الذى كان يدفعه إخلاصه له للدأب على حمله أنى كان — كر عليهم فى الوقت الذى هاجمهم فيه بوهيمند ؛ وهكذا أغار رجالنا جميعا غارة رجل واحد على العدو الذى سرعان ما ولى هاربا وأدبر موليا إيانا ظهره ، تاركا وراءه كثيرين من القتلى ، فاستولى رجالنا على جيادهم وسواها من الغنائم ، أما أولئك الذين استطاعوا النجاة من

---

(١) كان مما اتفق عليه الصليبيون أن يمضى بوهيمند وريموند كونت فلاندر لزرع النواحى المشرفة على وادى العاصى والإغارة على القرى وسلبها ؛ كما اتفقوا على أن يكلوا حراسة المعسكر الصليبى أمام أنطاكية إلى ريموند كونت صنجيل وأديمار أسقف دى پوى ، ويلاحظ أن جودفروى دى بويون كان فى هذه الآونة بالذات مريضا.

(٢) فى الأصل Peditum وقد ترجمتها الترجمة الانجليزية إلى كلمة « حجاج » .

القتل فقد أغذوا الهرب وحق عليهم « الهلاك الأبدى » . أما نحن فقد عدنا مسرورين نسبح ونمجد الرب الذى هو فى نفس الوقت ثالوث واحد والذى له الملك الآن وإلى الأبد .

آمـــين !

* * *

— ٦ —

حصار أنطاكية

ديسمبر ١٠٩٧ — فبراير ١٠٩٨

هجوم الترك على الصليبين وحملة التموين . فرار بطرس الناسك ووليم النجار . رحيل تاتيكيوس . انتصار بوهيمند على الترك قرب بحيرة أنطاكية .

١٤ — خرج الترك — أعداء الرب والمسيحية المقدسة — الموجودون داخل أنطاكية لحراستها حين ترامى إليهم الخبر بتغيب السيد بوهيمند وكونت فلاندر عن الحصار ، وقدموا واشتبكوا معنا فى قتال عنيف ، وكانوا يؤثرون مهاجمة النواحى الضعيفة . ولما كانوا يعرفون تمام المعرفة أن هذين الفارسين الفطنين بعيدان عنا فقد صمموا عـــلى مهاجمتنا والقضاء علينا يوم الثلاثاء(١) .

سرى أولئك المتبربرون المخيفون بقطع من الليل وانقضـوا علينا بقسوة وفتكوا بعدد كبير من فرساننا ومشاتنا الذين تراخوا فى حماية أنفسهم ،

(١) وكان ذلك يوم ٢٩ ديسمبر ١٠٩٧ .

وفقد أسقف بوى — فى هذا اليوم المشئوم — نائبه الذى كان يقود بنفسه كتيبته ويحمل بيرقه ، ولو لم يكن النهر فاصلا بيننا وبينهم لتعددت هجماتهم علينا ولنكبوا جماعاتنا بنكبات جسيمة .

كان بوهيمند الفطن حينذاك يغادر هو وجيشه منطقة الشرقيين قاصداً جبل تنكريد عساه يجد هناك أى شىء يستحق مشقة الأخذ والاستيلاء عليه ، وذلك لأن الناحية كلها كانت قد نهبت ، فوجد البعض قليلا من الأشياء ، وعاد الآخرون صفر الأيدى[١] ، فأنبهم بوهيمند العاقل بهذه العبارات :

« أيتها الفئة المنكودة الشقية ، ويا أحط المسيحيين قاطبة : ما الذى حملكم على سرعة الخروج ؟ لقد كان عليكم أن تصبروا وتتريثوا حتى يلتئم شملنا وألا تكونوا كالقطيع بلا راع ، فلو حدث أن صادفكم أعداؤنا هائمين مشردين لوثبوا عليكم وقتلوكم لأنهم يترقبونكم ليلا ونهاراً مؤملين أن يروكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجمونكم على انفراد أو مجتمعين ويعملون على سوقكم أسرى » . وما كاد يفرغ من خطابه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وهم أزهد ما يكونون فى الغنيمة .

وحين رأى الأرمن[٢] والسريان أن رجالنا عادوا وهم يكادون أن يكونوا صفر الأيدى خالى الوفاض رتبوا أمورهم على التجول فى الجبال وفى الناحية التى تكلمنا عنها يفتشونها تفتيشا دقيقاً ، ويشترون الحنطة والأطعمة

(١) فيما يتعلق بعودة الصليبيين أمام أنطاكية من غير تحقيق الهدف الذى خرجوا من أجله ، راجع Albert d'Aix, op. cit. p. 394 ، وأنظر أيضاً ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) ج ٥ ، ص ٥٨٠ .

(٢) حاول ماتيو الرهاوى أن يتخذ من إقدام الأرمن على جمع الأقوات للصليبيين دليلا على ما انطبعوا عليه من الرأفة بهم ، وهو رأى يخالف رأى صاحب الحوليات فى المتن أعلاه .

ويرسلونها إلى المعسكر الذى كانت المجاعة القاسية قد ضربت أجرانها عليه ، فكانوا يبيعون حمولة الحمار بثمانى بوبرات، أى ما يعادل مائة وعشرين دنية ؛ فمات الكثيرون من رجالنا الذين عجزوا عن دفع هذا الثمن الفاحش الارتفاع .

١٥ — أدت هذه النكبة الجسيمة والضيق البالغ إلى تسلل وليم النجار وبطرس الناسك سراً فمضى تنكريد فى آثارهما وأمسكهما ورجع بهما وهما فى غاية الخزى، فقطعا على نفسيهما العهد بالطاعة، وأقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يرجعان طواعية إلى المعسكر وأنهما سيعتذران للسادة .

أقام وليم طول الليل فى فسطاط بوهيمند مقيد الطرف إلى الأرض وهو أذلّ من المهانة ، فلما تنفّس صباح اليوم التالى مَثَل أمام بوهيمند وقد احمرّ خجلا ، فخاطبه بوهيمند بقوله : «أيها الشقى ، ياخزى فرنسا ويا عار جميع الغاليين وأشدهم إثماً ، ويا أشقى من حملته الأرض، لماذا هربت على هذه الصورة المخزية؟ أتراك كنت تريد خيانة هؤلاء الفرسان وتسليم جيش المسيح للكفرة كما صنعت بغيرهم من قبل فى إسبانيا؟». فلزم وليم الصمت المطبق ولم تنفرج شفتاه قط عن أية كلمة، فاجتمع الفرنسيون جلهم تقريباً متوسلين إلى السيد بوهيمند ألاّ يشتد أكثر من هذا فى إيلامه، فأجاب سؤلهم وقال «إن حبّى إياكم يحملنى على تلبية طلبكم عن طيب خاطر إذا أقسم لى قسماً خالصاً من قلبه وروحه ألاّ يحيد عن طريق بيت المقدس سواء فى الفرج أو الضيق ، وكذلك إذا قبل تنكريد ورجاله العفو عنه» . فلما سمع تنكريد هذه العبارة رضى ، وسرعان ما ردّه بوهيمند ؛ على أنه حدث فيما بعد أن افترس الخزى وليم النجار ، فما لبث أن هرب واختفى .

اشتد الفقر والبؤس اللذان ادّخرهما الرب لنا جزاء خطايانا[1]. إذ لم يعد فى الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة سوى ألف فارس.

١٦ — إلا أن الخبر ترامى إلى عدونا «تاتيكيوس» بأن جيوشاً من الأتراك زاحفة علينا فاستبد به الفزع الشديد، وصوّر له خياله أن قد فتك بنا أعداؤنا أو أننا سقطنا جميعاً أسرى فى أيديهم فراح ينتحل شتّى الافتراءات الكاذبة فقال: «أيها السادة وأيها الرجال الحكماء، انظروا ما نحن فيه من بالغ الضيق، لقد عدمنا النجدة وضاقت بنا السبل، فدعونى إذن أعود إلى بيزنطة، وكونوا على ثقة من أنى سأحضر إليكم ها هنا ببحر لجّى من السفن المحملة بالحنطة والنبيذ والشعير واللحم والطحين والجبن وكل ما تحتاجونه، وسأبعث إليكم بالجياد للبيع، وستصلكم الذخيرة إلى هنا عبر الأرض الموالية للإمبراطور، وأقسم لكم على صدق هذا كله، وإن أهل بيتى وفسطاطى لباقون فى المعسكر هم الآخرون، وكونوا واثقين من رجوعى إليكم على جناح السرعة».

ولما ختم هذا العدو كلامه مضى مخلّفاً بالمعسكر كل ما يملكه[2]. وهو حانث فى يمينه وسيظل حانثاً فيه، وكنا إذ ذاك فى أشد حالات الضنك، إذ ضيّق الترك علينا الخناق من جميع الجهات تضييقاً لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا فكابدنا مجاعة هدّدتنا بالفناء، وعدمنا كل مساعدة وكل نجدة، وهرب صغار القوم والفقراء إلى قبرص وإلى سلطانية الروم، كما فرّ بعضهم إلى

---

(١) يتفق صاحب الحوليات هنا مع Foulcher de Chartres, (R. H. Oc. Cr.) pp. 229-8 فى ارجاع المجاعة التى حاقت بالصليبيين إلى كثرة ما ارتكبوه من الخطايا.

(٢) عالجنا موضوع نكوص تاتيكيوس والأراء المتناقضة بشأنه فى كتابنا الحرب الصليبية الأولى (الطبعة الثانية، ١٩٥٨)، الفصل الثانى.

الجبال ، وكان خوفنا من الترك المفسدين قد جرّدنا من الجرؤة على الذهاب إلى البحر ، وبذلك سُدّت أمامنا جميع مسالك النجاة .

١٧ — حين علم الدوق بوهيمند أن حشداً كثيفاً من الترك لا يحصيه العد زاحف علينا اقتضاه ما انطبع عليه من الحكمة التفتيش عن الآخرين وقال لهم : « أيها السادة ويا أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن فاعلون ؟ إننا لسنا بالكثرة التي تمكننا من المحاربة في جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون ؟ سننقسم إلى فريقين وسيبقى المشاة لحراسة الخيام وسيتمكنون تمكننا تاما من الدفاع عن أنفسهم ضد حامية المدينة ، أما الفرسان فيلازموننا ليواجهوا أعداءنا الذين نصبوا معسكرهم على كثب منا عند حصن حارم وجسر الحديد »

ولما أقبل المساء خرج بوهيمند العاقل من معسكره مع الفرسان الآخرين الفطناء وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، وما كادت تبدو أولى خيوط الفجر حتى بعث النفائض ربيئة له لتستطلع عدد الكتائب التركية ومواضعها وحركاتها ، فانطلقوا لطيهم يفتشون كداً بهم عن أماكن تجمعات القوات التركية ، وأخيرا رأوا أتراكا كثيرين قادمين من ناحية النهر مقسمين إلى كتيبتين ، وكانت قوتهم الرئيسية في الخلف ، فعادت الطلائع على جناح السرعة قائلة « انظروا ، إنهم هناك ، لقد جاءوا ، فاستعدوا جميعاً لأنهم على وشك الاقتراب منا » .

وقال بوهيمند العاقل للآخرين : « أيها السادة وأيها الفرسان الذين لا يقهرون ، أعدّوا صفوفكم للقتال » ، فأجابوه : إنك عاقل وإنك فطن وإنك عظيم وفخم أنت أيها المحارب الباسل ياليث المعارك ويارب الوقائع

ويامقرر مصائر الحروب ، إفعل ما بدا لك فقد وكلنا الأمور إليك لتنجز كل ما تراه صالحا لنا ولك »

حينذاك أمر بوهيمند أن يرتب كل زعيم من الزعماء فريقه تنظيما تاما ، فنفذوا ما أمرهم به ، فكوّنوا ست فرق انضمت خمس منها بعضها إلى بعض لمهاجمة العدو ، وأخذ بوهيمند يتراجع بفريقه على مهل إلى الوراء ، واستبشر رجالنا إذا اشتبكوا مع العدو والتحمت كل فئة بفئة ، وتعالت الصيحات إلى السماء وتقاتلوا جميعاً ، وحجب الجوّ وابل من النبال الهطالة .

ولما أقبل الفريق الأكبر من جيشهم الذى كان مقيما فى الخلف هجموا هجوماً عنيفاً على رجالنا الذين أخذوا يتقهقرون شيئاً فشيئا ،فتألم بوهيمند الحكيم لهذا المنظر ،ودعى إليه حامل علمه روبرت ابن جيرارد وقال له : « إذهب بأسرع ما يمكنك وأنت أبسل رجل ، وتشجع فى سبيل نجدة دين الرب والضريح المقدس ، واعلم أن هذه الحرب ليست حرباً مادية بل هى روحية وكن أشجع صناديد المسيح ، رافقتك السلامة ،وليرعك السيد أينما كنت » . ولما أحاط نفسه من جميع الجهات بعلامة الصليب اندفع كالأسد الذى حبس عن الأكل ثلاثة أيام أو أربعة وخرج من غيله مبربراً ظامئا لدماء القطعان ، وكرّ لساعته وسط ميدان الوغى معملا القتل فى هذه النعاج التى راحت تفرّ هنا وهناك ،ثم صار فى وسط صفوف الترك واشتد فى مطاردتهم حتى إن أضواء علمه كانت تبرق فوق رءوسهم .

أما المقاتلون الآخرون فسرعان ما أمسكوا عن التقهقر حين رأوا علم بوهيمند يخفق عالياً أمام أعلام الآخرين ، وكرّ جميع رجالنا كرة رجل واحد على الترك الذين استولى عليهم الذهول فلاذوا بأذيال الفرار فأخذ رجالنا فى تعقبهم وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصى ، إلا أن

الترك سرعان ما عادوا إلى معسكرهم واستولوا على كل ما تمكنت أيديهم منه ، حتى إذا تم لهم سلب جميع ما به أضرموا فيه النيران وانثالوا هاربين ، ولما علم الأرمن والسريان بهزيمة الترك فى هذه الوقعة خرجوا من قراهم ، وتربصوا لهم فى الكمائن التى نصبوها لهم فى الممرات فقتلوا وأسروا الكثيرين منهم .

وهكذا شاءت إرادة الرب أن تدور الدائرة على أعدائنا فى ذلك اليوم ، ونجح رجالنا فى استرداد الجياد وغيرها من الأشياء العدة التى أفادتهم فائدة جليلة ، وحملوا مائة رأس من القتلى إلى باب المدينة حيث نصبت خيام رسل حاكم مصر الوافدين على ساداتنا .

أما المحاربون الذين بقوا فى المعسكر فقد شغلوا طول يومهم بقتال حامية أنطاكية أمام ثلاثة أبواب من أبواب المدينة ، وقد جرت هذه الوقعة يوم الثلاثاء[1] السابق لبدء الصوم الكبير ، كل ذلك برعاية سيدنا يسوع المسيح الذى ذهب وحكم مع الآب والروح القدس ، الرب ، له الحكم إلى الأبد .

آمين !

* * *

---

(١) وذلك يوم ٩ فبراير ١٠٩٨ .

— ٧ —

حصار أنطاكية

الحملة على السويداء . تشييد حصن المحمرة

١٨ — عاد رجالنا بفضل رعاية الله غالبين مستبشرين بنصرهم الذى آتاهم إياه فى ذلك اليوم . أما أعداؤنا المغلبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ودأبوا على الهروب وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهناك ، فمضى بعضهم إلى خراسان وانطلق البعض الآخر إلى أرض المسلمين ، ولما رأى زعماؤنا أن حامية البلد آخذة فى التحرش بنا والاقتراب منا فقد سهروا ليلهم ونهارهم باحثين عن الناحية التى قد يمكن لتلك الحامية مباغتتنا منها ، لذلك عقدوا مجلساً للتشاور فى الأمر وقالوا : «يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودى بجماعتنا أن نبنى حصناً على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما استطعنا بدورنا تضييق الخناق على عدونا» .

فوافق الجميع على هذا الرأى واستصوبوا المشروع استصواباً عظيماً ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال «أمدونى بالمساعدة اللازمة لإعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأحميه» ، فأجابه بوهميند : «وإننى سأمضى معك — إذا قبلت وقبل الآخرون — إلى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على إنجاز هذا العمل[1] . أما من يبقون هنا فسوف يعملون على تحصين جميع الجهات للدفاع عن أنفسهم» . وكان أن تم ما اتفقوا عليه .

---

(١) وقوامهم جماعة الجنوية الذين قدموا بأسطولهم يوم ١٧ نوفبر ١٠٩٧ ، راجع فى ذلك Brehier, Hist. Anonyme, p. 89, Note 5.

عند ذلك رحل الكونت وبوهيمند إلى باب سمعان ، أما نحن الذين انضم بعضنا إلى بعض وصرنا فئة واحدة فقد شرعنا فى بناء الحصن ، وإذا بالترك الذين أعدوا أنفسهم للخروج قد قدموا علينا لمحاربتنا ، وكروا علينا كرة أدت إلى هرب رجالنا وهلاك الكثيرين منهم مما سبب لنا جزعا كبيراً .

ولما رأى الترك فى اليوم التالى(١) تغيُّب زعمائنا وعلموا أنهم خرجوا بالأمس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لصدّ من كانوا قادمين من ناحية الميناء ، فلما أبصروا الكونت بوهيمند على رأس هذه القوة صرُّوا على أسنانهم واندفعوا مزمجرين زمجرة هائلة ، ثم أحدقوا برجالنا ينضحونهم بالنبال والسهام ، فجرحوهم وقتلوهم فى قسوة ، وهجموا على رجالنا هجوما عنيفا اضطرهم للفرار إلى الجبل الشاهق وإلى كل ناحية حسبوها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة إلا لمن تهيأ له الاختفاء بالهرب السريع . أما من عجز عن الفرار فقد لاقى حتفه ، واستشهد فى هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ومشاتنا ، وفى إيماننا أنهم صعدوا إلى السماء حيث لبسوا ثياب الاستشهاد البيضاء .

لم يسلك بوهيمند نفس الطريق الذى سلكه الآخرون ، بل سرعان ما انقلب راجعا مع فريق من الفرسان إلى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا فقد ضممنا صفوفنا إليهم وهتفنا باسم المسيح وكلنا ثقة تامة فى بلوغ الضريح المقدس ، واتفقنا على منازلة العدو ، وأن نكون جميعاً يداً واحدة فى الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فكان الترك يعتقدون أننا سنُغلب على أمرنا وأنهم سوف يقضون علينا كما قضوا على قوات الكونت وبوهيمند ، لكن الرب

(١) وذلك يوم ٦ مارس ١٠٩٨ .

القوى لم يمكنهم من ذلك ، فقد هاجم جمعَهم فرسانُ الإله الحق — المسلحون بعلامة الصليب — هجوما عنيفاً دفعهم إلى الفرار عن طريق الجسر الضيق وأمعنوا فى الهرب حتى بلغوا مدخل المدينة ، أما الذين لم يسعفهم الهرب بعبور الجسر والنجاة بحياتهم لتزاحم الرجال والجياد بالمناكب فقد لاقوا فى هذه البقعة الموت الأبدى ، وذهبوا إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته(١) .

ولما تم لنا الظهور على الترك أخذنا فى تضييق الخناق عليها ودفعناهم شطر النهر وألقيناهم فيه ، فأصطبغت أمواجه السريعة بدمائهم ، وكان أحدهم إذا حاول تسلق أعمدة الجسر أورام السباحة لبلوغ اليابسة تناوشته سهام رجالنا الذين كانوا يغطون شاطىء النهر ، وجلجل الأفق بضجيج صيحاتهم وصراخ رجالنا حتى بلغ الضجيج عنان السماء ، وانهل وابل من السهام والنبال حجب ضوء النهار من أن يلمحه الطرف ، وبرزت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن سوء منقلب الترك وهن فرحات سراً .

أما الأرمن والسريان فقد استجابوا — طوعا أو كرها — لأوامر الترك وأخذوا ينضحوننا بالنبال ، وهلك فى هذه الوقعة إثنا عشر أميرا من أمراء الترك ، كما قُتل كثيرون غيرهم من أفطن المحاربين وأشجع المقاتلين الذين كانوا يعدون من خيرة المدافعين عن المدينة حتى لقد بلغ عددهم ألفا وخمسمائة رجل . أما مَن قُيِّضت لهم الحياة فلم يعودوا يجرءون على التهليل أو الزعيق سواء بالليل أو بالنهار كما جرت عادتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم سوى مقدم الليل ، فهو الذى منع الفريقين من المحاربة واستعمال الحراب والسيوف

---

(١) متى ٢٥ : ٤١ .

والسهام ، وبذلك ، تمكنا بقوة الرب والضريح المقدس من قهر أعدائنا الذين فقدوا ما كان لهم من قبل من مقدرة على الهتاف والعمل .

وأصبنا فى هذا اليوم كمية كبيرة من الحاجات الضرورية لاسيما من الجيـاد .

وفى اليوم التالى[1] غادرت المدينة — عند مستهل النهار — فئة أخرى من الترك وجمعت ما صادفته على شاطىء النهر من جيف قتلاها ، ثم أخذتها وقبرتها فى « المحمرة » الواقعة خلف الجسر أمام باب المدينة ، ودفنوا مع هذه الجثث جببا وبزنتيات[2] وقطعا من الذهب وقسياً وسهاما وغير ذلك من الأشياء التى لا نعرف لها أسماء . ولما علم رجالنا أن الترك قد لحدوا موتاهم جمعوا عدتهم وهبوا مهطعين مسرعين إلى تلك المقبرة الشيطانية وأمروا بتحطيم الأضرحة ونبشها وطرح الجثث بعيداً ، ورموا بها جميعاً فى خندق حفروه لها[3] ، كما حملوا الرووس المقطوعة إلى المعسكر ليعرف القوم عدد القتلى ، هذا عدا الرووس التى وضعوها على أربعة جياد من جياد رسل أمير مصر[4] وأرسلوها ناحية البحر ، فلما رأى الترك هذا المنظر ران على قلوبهم الحزن المقيم ؛ وكانوا يبكون كل يوم قتلاهم ، ولم يعد لهم سوى النحيب والعويل .

وفى اليوم الثالث[5] انضم بعضنا إلى بعض — ونحن فى شدة الفرح —

---

(١) هو يوم ٧ مارس ١٠٩٨ .

(٢) نوع من العملة المستعملة إذ ذاك.

(٣) Albert d'Aix, op. cit., pp. 384-6; Raymond d'Aguilers p.249.

(٤) Raymond d'Aguilers, p. 247 حيث أورد خبر هذه السفارة الفاطمية بالتفصيل

(٥) أعنى يوم ٨ مارس ١٠٩٧ .

لبناء الحصن المشار إليه آنفاً بالأحجار التى انتزعناها من مقابر الترك »، ولم يكد يتم بناؤه حتى شرعنا فى التضييق من كل ناحية على أعدائنا الذين تلاشى زهوهم ، أما نحن فقد ذهبنا فى غاية الطمأنينة أنَّى أردنا : إلى الميناء أو الجبل ، نسبِّح ونحمد ربنا الذى له المجد والشرف إلى الأبد . آمين .

* * *

— ٨ —

نهاية حصار أنطاكية والاستيلاء عليها

(من ٨ مارس إلى ٣ يونيو ١٠٩٨)

تانكريد يحتل حصنا بحرى المدينة ويسد جميع المسالك على المحاصرين . المفاوضات بين بوهيمند وفيروز .
الاستيلاء على أنطاكية

١٩ — أغلقنا جميع المخارج تقريبا أمام الترك وسددناها عليهم إلا ناحية النهر التى كان بها حصن واحد ودير منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حراستنا القوية لما جُرؤ أحدهم على مغادرة أى باب من أبواب المدينة ولَسُدَّت جميعها فى وجوههم ، لذلك اجتمع رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم . « لنختر واحدا منا للاستيلاء بالقوة على هذا الحصن ، وليحول بين أعدائنا وبين بلوغ السهل والدنوّ من الجبل ، وكذلك لسدّ كل مداخل المدينة ومخارجها » ، فكان تنكريد أوّل من قدّم نفسه وقال « إذا كنت أعرف الفائدة التى سوف أجنيها من هذا

الحصن فإنى سأحتله مع جميع رجالى وحدهم ، وسأمنع العدو منعاً باتاً عن الطريق الذى كثيراً ما جرت عادتهم على مداهمتنا منه » .

فأمدوه فى الحال بأربعمائة قطعة من الفضة .

وبادر تنكريد فرحل [١] مع فرسانه وجنوده الأبطال ، وسرعان ما أخذ جميع السبل على الأتراك أخذاً قوياً حتى إنهم — وقد أذهلهم الجزع — لم يجرءوا على فتح أحد أبواب المدينة لجمع الكلأ والخشب أو أى ضرب من الضروريات اللازمة لهم ، وبقى تنكريد هنالك مع رجاله ، وبدأ فى محاصرة المدينة من جميع النواحى .

وفى اليوم ذاته أقبل إلى المدينة من الجبال فريق كبير من الأرمن والسريان وهم فى غاية الاطمئنان ، حاملين الذخيرة للتبرك والأقوات لتموين المدينة ، فهبّ تنكريد لصدّهم وأسَرَهم واستولى على جميع ما معهم من المئونة من القمح والنبيذ والشعير والزيت وأمثالها ؛ وكان تنكريد قد أظهر غاية القوة وجاء بالعجائب ، ذلك أنه قبل سقوط أنطاكية سدّ جميع المخارج أمام الترك واحتلها .

وإنه لمن المستحيل علىّ أن أقصّ جميع ما فعلناه قبل استيلائنا على المدينة ، كما أنه لا يمكن لأحدما ممّن كانوا فى تلك النواحى : دينياً كان أم علمانياً أن يكتب أو يروى بالتمام كيف سارت الأمور .

ومع ذلك فسأروى الشىء القليل منها .

---

(١) كان ذلك الرحيل يوم ٥ أبريل ١٠٩٨ .

٢٠ — كان هناك قائد تركى الجنس اسمه « فيروز »[1] قد توثقت عرى الصداقة المكينة بينه وبين بوهيمند الذى طالما راح يلوّح له فى الرسائل المتبادلة بينهما بمودته ويمنيه بها ، ووعده بالترحيب به إن هو اعتنق النصرانية ، وراح يغريه بالشرف العظيم والثروة الوافرة ، فوثق فيروز بتلك الأقوال وهاتيك العهود وقال « إننى أقوم بحراسة ثلاثة أبراج ، وإننى أعده بها عن طيب خاطر وسأسلمه إياها يوم يشاء ، وسأرحب به فيها » .

فلما وثق بوهيمند من دخوله المدينة انشرح صدره واطمأنت نفسه ، ثم جاء إلى السادة الآخرين ثابت الجنان وقال لهم مستبشراً « أيها الفرسان الفطنون ، عليكم أن تتبصروا المتربة والشقاء اللذين نحيا فيهما صغاراً وكباراً ولا ندرى من أين تأتينا النجدة ، ومن ثم فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يقوم أحدنا فيرشح نفسه ويتقدمنا جميعاً ، فإن مكنته إحدى الوسائل أو براعته من الاستيلاء على المدينة أو شن الهجوم عليها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الرأى على أن نملكه إياها » ، غير أن هؤلاء السادة لم يقبلوا عرضه وخالفوه بقولهم له : « لن نقبل أن ينفرد واحد منا وحده دون الآخرين بامتلاك هذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعاً فيما بيننا بالتساوى ، ولما كنا جميعاً قد ساهمنا فى هذا العمل فلا بد من أن نتقاسم شرف الاستيلاء عليها .

---

(١) ذكر ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٦ ، (طبعة الاستقامة بالقاهرة) ان اسمه « روزبة » وأشار إلى أنه كان زرّاداً ، ثم أصبح أحد المستحفظين للأبراج حيث كان يتولى حفظ برج يلى الوادى وأنه مبنى على شباك فيه ؛ وسمّاه ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ج ٥ ص٥٨٢ «بفيروز» ؛ وهو الأسم الذى آثرناه لقربه من الرسم الهجائى الوارد فى الأصل اللاتينى لهذه المذكرات حيث قال إن اسمه Pirrus ؛ ولم يذكر ابن الأثير ولا ابن العديم جنسه ، على حين أن المراجع الصليبية المعاصرة اهتمت بهذه الناحية وإن اختلفت فيما بينها ، فصاحب الجستا — كما فى المتن أعلاه — يذكر أنه تركى ، وجاراه فى ذلك Raymond d'Aguilers, p.251. ونسبه بعضهم إلى الأرمن كما جاء فى Raoul de Caen,p. 652 .

فلما سمع بوهيمند هذه الكلمات افترت شفتاه عن بسمة خفيفة فيما بينه وبين نفسه وانصرف عنهم لساعته .

ولم نلبث غير قليل حتى تلقينا أنباء اقتراب جيش أعدائنا الترك والرعاع وغير الأرثوذكس وغيرهم من الشعوب ، وسرعان ما اجتمع زعماؤنا وعقدوا مجلساً للتشاور فيما بينهم قائلين : «إذ قدر لبوهيمند التغلب على المدينة وحده أو بمعونة الآخرين فعلينا أن نوليه إياها عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفاء بعهدنا مع الإمبراطور فى المبادرة برد المدينة إليه إذا هو[1] قدم لنجدتنا وراعى الاتفاق الذى أبرمه معنا وأقسم لنا على احترامه ، فإن لم يفعل ذلك تركناها فى حوزة بوهيمند » .

حينئذ شرع بوهيمند فى ملاحقة صديقه[2] بطلباته اليومية ، مغرياً إياه بكل ضروب الرعاية والكسب الجزيل ، قائلا له «لقد دنت اللحظة الملائمة التى تستطيع فيها إتمام ما اعتزمنا عليه من صلاح أمورنا ، وذلك بأن تقوم ياصديق فيروز بالمساعدة التى وعدتنى بها » .

وسُرّ فيروز وصرح بأنه سيعاونه بالطريقة التى يراها ملائمة .

فلما كانت الليلة التالية[3] بعث فيروز ابنه إلى بوهيمند سراً ليكون رهينة عنده تأكيداً له على أنه سوف يدخله البلد ، وأنفذ معه هذه الرسالة :

« عليك أن تستدعى غـــداً جميع جيش الفرنجة متظاهراً بالذهاب لتخريب المنطقة التى يسكنها المسلمون ، ثم تنكفئ على عجل عبر الجبل

---

(١) أى الأمبراطور ألكسيس كومنين .

(٢) يعنى بذلك « فيروز » .

(٣) ليلة ٢ — ٣ يونيو .

القائم على اليمين ، أما أنا فسأعنى بمراقبة هذه القوات وسأنتظرها وأتلقاها في الأبراج (١) التي في حوزتي وتحت إشرافي » .

وفي الحال استقدم بوهيمند أحد مشاته واسمه مال كرون Male Coronue وألقى إليه بتعليماته ، وطلب إليه أن يدعو جيش الفرنجة العظيم للتأهب لدخول أرض المسلمين ، وكان أن تم له ما أراد . وعهد بوهيمند بتنفيذ هذه الخطة إلى الدوق جود فروى ، وكونت فلاندر ، وكذلك كونت صنجيل وأسقف بوى قائلا لهم «ستتسلم لنا أنطاكية الليلة إذا لاحظتنا عناية الرب » .

ولقد تم كل شيء على الصورة التالية : فقد تجمع الفرسان في السهل ، وأقام على الجبل جماعة المشاة ودأبوا على السير طوال الليل بعضهم في إثر بعض حتى تنفس الفجر ، ثم اقتربوا من الأبراج التي ظل حارسها يقظان بها ، وسرعان ما ترجل بوهيمند وأصدر تعليماته إلى جميع من معه قائلا لهم : « امضوا قدماً مطمئنين متحدين ، واصعدوا بالسلم إلى أنطاكية التي ستقع في يدنا سريعا إن شاء الله » .

فظلوا سائرين حتى بلغوا السلم المثبت إلى أسوار المدينة تثبيتا قويا ، فارتقاه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وانبثوا بين الأبراج التي يشرف عليها فيروز الذي دب الخوف إليه ، وخشى على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع بين يدى الترك ، وذلك حين أبصر الصاعدين على السلم لا يعدون أن يكونوا شرذمة ضئيلين ، فصاح بهم « ما أقل الفرنجة (٢) ، أين إذن بوهيمند الشجاع؟ أين هذا الذي لا يقهر ؟ » .

---

(١) الواقع أن فيروز كان يقوم بحراسة ثلاثة أبراج وليس على برج واحد كما ذكر ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٦ .

(٢) قال فيروز هذه الجملة باليونانية Micro Francos echome وهكذا نقلها صاحب الحوليات .

وفى هذه اللحظة بالذات نزل جندى لمباردى [١] وتدافع إلى بوهيمند قائلا له « ترى ما معنى وقوفك هنا أيها الرجل الفطن ؟ وما الذى جئت من أجله ؟ أما ترانا قد استولينا على ثلاثة أبراج ؟ » .

فأثارت بوهيمند هذه الكلمات فانضم إلى الآخرين ووصل الجميع مستبشرين إلى السلم .

ما كاد الذين بالأبراج يلمحون هذا المنظر حتى تعالى هتافهم وهم فى نشوة وسرور قائلين .. « هكذا أراد الرب » .

وصحنا نحن[٢] نفس الصيحة .

وعندئذ بدأ التسلق العجيب حتى بلغوا القمة وانطلقوا سراعاً إلى الأبراج الأخرى وهم يقتلون كل من يعثرون عليه ، فكان من بين القتلى أيضاً أخو فيروز .

غير أن السلم الذى صعدنا عليه تحطم مما أحزننا وأوقعنا فى كرب شديد ، وعلى الرغم من انكساره إلا أنه كان يوجد إلى يسارنا باب مغلق لايدرى أحد عنه شيئاً ، وكان الظلام لا يزال مخيما ، وأخذنا نتحسس الطريق إلى هذا الباب ، وأفضى بنا البحث عنه إلى العثور عليه ، فتسابقنا جميعا نحوه وحطمناه ونفذنا منه إلى المدينة .

وفى هذه اللحظة بالذات دوت صيحة مجلجلة فى كافة أرجاء المدينة ، فلم يضع بوهيمند أية دقيقة بل أمر برفع رايته المجيدة على رابية مواجهة للقلعة

---

(١) يستعمل كاتب المذكرات كلمة « لمباردى » هنا فى معرض الكلام عن نرمان إيطاليا ، راجع للقدمة .

(٢) التفرقة بين من فى داخل الأبراج من الفرنجة وبين الذين ظلوا مع بوهيمند تدل على أن المؤلف كان من الفريق الثانى .

وعندما تنفس الصباح ترامى الخبر الخطير الذى أرجفت به المدينة إلى من كانوا لا يزالون مقيمين فى معسكراتهم فخرجوا مسرعين ، ورأوا راية بوهيمند تخفق على أحد المرتفعات ، وسرعان ما كروا مسرعين ودخلوا المدينة من أبوابها ، وذبحوا من صادفوه بها من الأتراك والمسلمين ، ولم ينجُ من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار إلى القلعة ، وخرج جماعة آخرون من الترك من الأبواب ورأوا سلامتهم فى الهروب .

أما رئيسهم ياغى سيان فقد هرب هو الآخر مع كثيرين ممن تبعوه[1]، وأدى بهم الهرب إلى دخول منطقة تنكريد ولم تكن بعيدة عن المدينة . ونظرا لتعب جيادهم فقد انكفأوا إلى إحدى الدساكر واعتصموا ببيت من بيوتها ، ولم يلبث سكانها الارمن والسريان أن عرفوا خبرهم ، وسرعان ماقبضوا[2] على ياغى سيان وقطعوا رأسه وحملوها إلى بوهيمند لينالوا حريتهم، كما بيع نجاده وقراب سيفه بستين بيزنتة .

وقد جرت هذه الأحداث فى اليوم الثالث من يونيو أى خامس أيام البطالة ، وامتلأت جميع شعاب المدينة ومسالكها بالجثث ، حتى لقد أصبح من المستحيل السير فيها نظراً للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن أحد منا من السير فى الشوارع إلا على جثث الموتى .

* * *

(١) الوارد فى ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٢٨٦ ، أنه خرج هاربا فى ثلاثين غلاماً .

(٢) ذكر ابن الأثير (شرحه) أن ياغى سيان سقط عن فرسه مغشيا عليه ولم تكن به مسكة ولما قارب الموت فتركمن معه فاجتاز به أرمنى حطاب فقتله .

— ٩ —

حصار الترك لأنطاكية

من ٥ يونيو إلى ٢٨ يونيو ١٠٩٨

وصول أم كربوغا أنطاكية . رسالة للخليفة عن الجيش المسيحى . موقف أم كربوغا وميلها للنصارى . هجوم كربوغا على أنطاكية . قصة الحلم . يمين الزعماء الصليبيين . رؤيا بطرس . حريق أنطاكية والمجاعة فيها . هروب كونت شارتر إلى الامبراطور . الحربة المقدسة . سفارة بطرس الناسك وهرلوان إلى المعسكر الإسلامى . انتصار الصليبيين .

١ — كان كربوغا — زعيم جند ملك(١) فارس — لايزال فى خراسان حين تلقى من ياغى سيان — حاكم أنطاكية — عدة رسائل يلح عليه فيها أن يبادر إلى القدوم لإنقاذه ، لأن محاصرة الفرنجة الأقوياء إياه بأنطاكية أنزلت به شر البوائق ، ولو أن كربوغا أنفذ إليه فريقا لنجدته لأسلمه ياغى سيان مدينة أنطاكية ، أو لما كان أقل من أن يمنحه منحة عظيمة . وكان كربوغا قد استعد الأمر منذ زمن بعيد ،لذلك لم يكد يأذن له الخليفة — زعيمه الروحى — بقتال النصارى حتى جمع جيشا كبيراً من الترك ما لبث أن زحف به فى الطريق الطويل المؤدى إلى أنطاكية .

وجاء حاكم بيت المقدس بيته لمساعدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر بجند كثيف ؛ وجمع كربوغا جموعاً غفيرة جداً من الوثنيين والترك والعرب والشرقيين والرعاع وغير الأرثوذكس والكرد والفرس والغلمان وغيرهم

(١) المقصود بملك فارس هنا السلطان بركياروق أكبر أبناء السلطان ملكشاه الذى أخرجه الثوار بعد موت أبيه من حبسه فى أصبهان ؛ راجع الكامل لابن الأثير ، ج ٨ ص ١٦٤ — ١٦٥

من الأجناس الأخرى التى لاحصر لها ؛ أما الغلمان فكانوا ثلاثمائة ألف رجل وكانوا فى منعة من الرماح والقسىّ وسواها من الأسلحة للبسهم الحديد هم وجيادهم ، هذا إلى ماطبعوا عليه من الاقتصار فى الحروب على حمل السيوف من بين مختلف أنواع السلاح ؛ وقدم كل هؤلاء لمحاصرة أنطاكية قاصدين تبديد شمل جيش الفرنجة .

ولما صاروا على مقربة من المدينة صادفهم شمس الدولة [١] بن ياغى سيان أمير أنطاكية ، فجرى إلى كربوغا متوسلا إليه باكياً ، مخاطباً إياه بقوله : « أيها الأمير الذى لايقهر ، أتوسل إليك أن تقدم لنجدتى لأن الفرنجة محاصرىّ — وأنا فى قلعة أنطاكية — من جميع الجهات ، وقد صارت المدينة فى أيديهم ، وهم يريدون إخراجنا من أرض سلاجقة الروم ومن الشام بل ومن خراسان ذاتها ، وقد أنفذوا ما أرادوا فقتلوا أبى ، ولا همّ لهم إلا القضاء علىّ وعليك وعلى جميع أبناء جنسنا ؛ وما أرقب منك غير عونك تبذله لى ومساعدتك إياى فى هذا المأزق » .

فأجابه كربوقا « إذا شئت أن أنجدك نجدة صادقة وأن أعمل حقاً على إنقاذك من هذا الخطر فأسلمنى هذه القلعة ، وإذ ذاك سترى أى خدمة أؤديها لك ، وسأجعلها فى حراسة رجالى [٢] » .

فقال له شمس الدولة : « إذا استطعت القضاء على جميع الفرنجة وأسلمتنى رءوسهم فسوف أتخلى لك عن القلعة وأغدو تابعاً لك ، وحينذاك أعدّ هذه القلعة من أملاكك » .

---

(١) ورد اسمه فى الأصل اللاتينى Sensadolus . هذا ويلاحظ أن الصليبيين احتلوا أنطاكية لكن عزّت عليهم قلعتها التى ظل ياغى سيان مقيماً بها فى جنده .

(٢) يطابق هذا ماورد فى ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٨٢ وما بعدها .

غير أن كربوقا قال له «كلا ، ليس الأمر كما تقول ، بل إن كل شيء مرهون بوجوب تسليمك إياى القلعة».

فأسلمه شمس الدولة القلعة راضياً أو كارهاً .

وفى اليوم الثالث(١) من دخولنا المدينة صارت بيننهم تحت الأسوار ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصى ، وهجموا على أحد الأبراج(٢) ، وقتلوا كل من وجدوه به ، ولم ينج منهم من الموت غير زعيمهم الذى وجدناه مقيداً بالسلاسل عقب الموقعة العظمى(٣) .

وفى اليوم التالى(٤) تحرك الجيش الوثنى واقترب من المدينة ، وضرب معسكره بين النهرين ولبث هناك مدى يومين ؛ فلما تسلم كربوقا القلعة دعى إليه قائداً(٥) من قواده يقدّر فيه الإخلاص والطيبة والهدوء وقال له «أريد منك أن تكون وفياً لى فى حراسة هذه القلعة ، لأننى أعرف منذ أمد بعيد قدر وفائك ، وإنى لموكل إياها إليك للعناية بها فى المحافظة عليها» فأجابه القائد . «وددت لو أعفيتنى من هذا الأمر ، ومع ذلك فإننى أقبله على شرط واحد هو أن أبادر إلى تسليم القلعة للفرنجة إن هم انتصروا عليك

---

(١) هو يوم ٥ يونيو ، وقد ذكر هذا التاريخ Brehier, op. cit. p. 115, note I بناء على ماورد فى خطاب الأمراء إلى البابا عقب فتح أنطاكية ، وسار Runciman, op. cit. p. 237 على هذا التاريخ .

(٢) حدّده Brehier, op. cit. p. 115, n. 3 بأنه أحد الأبراج القائمة عند مدخل جسر العاصى لحمايته .

(٣) هى وقعة ٢٨ يونيو التى انتصر فيها الفرنجة على كربوغا ، راجع فى تحقيق هذا التاريخ Foucher des Chartres, pp. 248 - 9.

(٤) يعنى بذلك يوم ٦ يونيو .

(٥) هو أحمد بن مروان ، راجع ابن العديم : شرحه .

فى وقعة فاصلة »، فأجابه كربوغا « إننى أعرف تمام المعرفة صدقك وحكمتك ولذلك فإنى أقبل كل ماترى الخير فيه ».

* * *

عاد كربوغا إلى جيشه وأراد الترك أن يسخروا من الفرنجة فجاءوا إليه بسيف رخيص قد علاه الصدأ، وبقوس مسودّ، وبحربة لم تعد صالحة للاستعمال كانوا قد أخذوها من جماعة من الحجاج الفقراء، وقالوا له: « هذه هى الأسلحة التى يحملها الفرنجة فى محاربتهم إيانا »، فابتسم كربوغا وقال لهم: « أهذه هى الأسلحة القوية المشحوذة التى يرمى النصارى إلى التغلب بها علينا فى آسيا والتى يعتقدون أنهم متمكنون بواسطتها من طردنا إلى ما وراء خراسان وإزالتنا عن تلك الناحية حتى أنهار الأمازونيين؟ أولئك النصارى الذين طردوا إخواننا من آسيا الصغرى ومن أنطاكية، تلك المدينة الملوكية والعاصمة العظمى لجميع بلدان الشام! ».

ثم بادر فبعث فى طلب كاتبه وقال له: « أكتب الآن جميع المراسيم التى ستقرأ فى خراسان وقل فيها: « إلى خليفتنا المعظم، وإلى مولانا السلطان الجليل الفارس المصلات، وإلى جميع فرسان خراسان الحكماء، السلام عليكم والتوقير لكم، وبعد فليتهيأ لهم من السعادة والتوفيق الكريم ما يتيح لهم النعمة والوعظ فى جميع المناطق، والانكباب على حميتهم ومناعهم وإنجاب الذرية الضخمة القادرة على قتال النصارى بشجاعة، وأخذ هذه الجيوش الثلاثة التى استطعنا بها قهر فريق من الفرنجة والذين يعلمون صفة السلاح الذى يصطنعه الشعب الفرنجى لغزونا، وليعلم الجميع كذلك أنى أسرت الفرنجة الموجودين داخل أنطاكية وأنى احتللت القلعة وصارت فى يدى، وسوف يساقون إلى الموت أو الأسر فى خراسان لأنهم يتوعدوننا بالطرد على يد جيوشهم وبالنفى

خارج بلادنا كما استطاعوا نفى أبناء جنسنا من آسيا الصغرى والشام ، وإنى لأقسم لكم بمحمد وبجميع أربابنا[1] أنى لن أظهر بحضرتكم وأمثل أمامكم قبل أن أغزو بحد سيفى القوىّ مدينة أنطاكية الملوكية وجميع بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلغاريا حتى إقليم أبوليا تمجيداً لآلهتنا ولكم ولجميع الجنس التركى » .

وهكذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢ — أما والدة كربوغا التى كانت بمدينة حلب فقد قدمت لمقابلة ولدها واستخرطت فى البكاء بين يديه وسألته : « ياولدى . أحقاً ما سمعته ؟ »

فسألها « وماذا سمعت ؟ »

قالت « علمت أنك ماضٍ لمحاربة جيش الفرنجة ! »

فأجابها : « لقد علمت الواقع »

فقالت له « أستحلفك يابنىّ بجميع الأرباب وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة ، أنت أيها الفارس الذى لا يعرف الهزيمة ولم يرك أحد قط هارباً أمام أى فاتح ؛ ولقد طبق خبر فروسيتك الآفاق ، كما أن أبسل الفرسان ليرتجفون أنّى كانوا حين يسمعون اسمك يُنطق أمامهم ، ونحن نعرف جيداً يابنىّ أنك أخو غمرات ومردى حرب ، عركتَ الحروب وألممتَ بفنونها ، ولن تستطيع أية أمة — مسيحية كانت أم وثنية — أن تزهو بقوتها فى وجهك ، بل يهرب الجميع إذا ذُكِرَ اسمك كما تهرب النعاج أمام زئير الأسد ، ولهذه الأسباب أتوسل إليك ياولدى

(١) هذه رسالة تمخض عنها خيال كاتب المذكرات ، والخطأ فيها بيّن وهى تفصح فى جلاء عن مدى جهله المطبق وجهل أهل العصور الوسطى فى الغرب بالإسلام وحقيقته وأن جوهره التوحيد .

الحبيب أن تستمع إلى نصائحى وألا تحاول مطلقاً التفكير فى قتال الأمة المسيحية أو الشروع فى منازلتها » .

فلما سمع كربوغا هذه النصائح الأموية أجابها خائفاً : « ماذا تقولين يا أماه وما الذى تحكين ؟ ، أتراك مجنونة أو مستّتك لوثة ؟ إن معى كثيراً من الأمراء الذين لايتوفر مثلهم للمسيحيين : صغاراً كانوا أم كباراً » .

فأجابته أمه « يابنىّ العزيز : إن النصارى لايستطيعون الوقوف أمامك فى الحرب وأعرف أنهم عاجزون عن النهوض لقتالنا ، إلا أن ربهم يحارب دائماً فى صفوفهم ، كما أنه يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهاراً حماية الراعى لقطيعه ، ولا يرضى لأمة ما أن تمسّهم بأدنى سوء أو شقوة ؛ وإن إلههم ليؤذى كل متطلع لمقاومتهم مصداقاً لما جاء على لسان داود النبى « نشتت الشعوب الذين يسرّون للقتال[1] » ، وقوله « أفِض رجزك على الأمم الذين لايعرفونك ، وعلى الممالك التى لم تَدْعُ باسمك[2] » ؛ بل إنك لترى إلههم القوىّ الذى لايُقهر قد قضى — قبل أن يتهيئوا للقتال — على جميع أعدائهم بواسطة ملائكته ؛ واعرف الحقيقة يابنى العزيز وهى أن أولئك النصارى يسمون بأبناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل « إنهم أولاد الموعد[3] » ، وقال الرسول أيضاً « إنهم ورثة الله ووارثون مع المسيح[4] » ، وهم الذين منحهم الرب الميراث الذى وعدهم إياه لأنه القائل على لسان الرسل « من المشرق إلى المغرب تكون قوتهم ولا يقف إنسان

(١) مزامير ، ٦٧ : ٣١

(٢) مزامير ، ٧٨ : ٦

(٣) رسالة بولس إلى أهل رومية ٨ : ٩ ؛ والرسالة إلى أهل إغلاطية ، ٤ : ٥ .

(٤) رسالة بولس إلى أهل رومية ٨ : ١٧ .

فى وجههم[١] » ، فمن ذا الذى يستطيع معارضة هذه الأقوال أو مناهضتها ؟ والواقع أنك إذا بدأت بحربهم بؤت بالخسارة الفادحة والعار المقيم ، وستفقد كثيرين من فرسانك المخلصين . وتخلف وراءك كل غنيمتك هارباً بينما يلاحقك الفزع الشديد . أجل ! إنك لن تموت فى هذه المعركة بل فى بحر السنة ذلك لأن الرب فى غضبه لا يدين فوراً من أساء إليه بل يمهله ويؤجل حسابه إلى اللحظة التى يشاؤها هو ذاته ، فينتقم منك أفظع انتقام . ولهذا السبب أخشى أن يراك مستحقاً العذاب الشديد ، لكننى أقول لك إنك ستفقد كل ماتمتلكه الآن يداك » .

تأثر كربوغا غاية التأثر بما سمع وأجاب أمه على كلامها بقوله : « يا أمى الغالية : أتوسل إليك أن تذكرى لى من ذا الذى أنبأك بكل هذا القول عن الشعب المسيحى ؟ ومن أنبأك أن ربه يحبه إلى هذه الدرجة حتى ليمده بمثل هذه القوة فى القتال ؟ ومن ذا الذى حمل إليك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكية وأنهم سيستولون على غنائمنا ويمضون فى آثارنا عقب نصرهم المؤزر علينا ، ومن قال لك إن المنية سوف تخترمنى فجاة فى سنتى هذه ؟ » .

فقالت له أمه والحزن يمضها مضاً : « يابنى العزيز ، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة سنة أنه جاء فى كتابنا وفى كتابات الوثنيين أن الأمة المسيحية ستهاجمنا وسيعقد لها النصر علينا فى كل ناحية ، وأنها ستسود الوثنيين ، وأن شعبنا سيخضع لها ، ولكننى لست أدرى عما إذا كان مقدراً لجميع هذه الحوادث أن تحدث الآن أم لم يحن زمنها بعد ، ولقد تبعتك — والأسى يرمضنى — من حلب . تلك المدينة العظيمة التى

---

(١) التثنية ١١ : ٢٤ ؛ ويشوع ١ : ٥٤ .

أستطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة من مطالعة النجوم ومساءلة الكواكب والبروج الاثنى عشر والتنبؤات العدة ، فأنبأتنى كل هذه الظواهر أن الشعب المسيحى سيقهرنا أنَّى كنا ، وإننى لأضطرب فزعاً وحزناً مخافة أن أحرم منك » .

فأجابها كربوغا : « يا أمى الغالية ، أفضى إلىّ بكل ما يأبى قلبى أن يؤمن به » .

فقالت له أمه « ما كان لى إلا أن آلى ذلك الطلب عن طيب خاطر ياولدى الحبيب لو كنت أعرف الأمور الخافية عليك » .

فقال لها « إن بوهيمند وتنكريد ليسا آلهة الفرنجة ولا يخلّصانهم من أعدائهم لأنهما يأكلان فى المرة الواحدة ألفى بقرة وأربعة آلاف خنزير[١] » .

فقالت له أمه « يا بنى العزيز ، إن الموت جائز على بوهيمند وتنكريد جوازه على سائر البشر ، إلا أن ربهما فضلهما على غيرهما ومنحهما قوة يحاربان بها الجميع ، ولأن ربهم الرحمن — تقدس اسمه — يقول « إنه صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها »[٢] وإن عرشه موجود فى السماء منذ الأزل وبأسه مرهوب فى كل مكان » .

فأجابها ابنها « لن أكف عن قتالهم حتى ولو كان الأمر كما تزعمين » . فلما أدركت أمه أنه غير مستجيب لتبكيتها الشديد انصرفت عنه وقلبها

---

(١) النص اللاتينى لهذه الترجمة هو « Non sunt igitur Boamundus et Tancredus Francorum dii et non eos Liberant de inimicisuis et quod ipsi manducant in uno quoque prandio II milia voccas et IV milia porcos » وقد علق الأستاذ بريبه على هذا بقوله « إن فى هذه الفكرة الساخرة غموضا » ولكن المتأمل للحادثة بأكملها يرى مقدار ما أعمله خيال صاحب الحوليات فى هذا الحديث الخرافى .

(٢) الخروج ٢٠ : ١١ .

يتفطر حزنا وانكفأت راجعة إلى حلب ، حاملة معها كل ما استطاعت حمله من الغنيمة .

٢٣ — وفى اليوم الثالث[١] لبس كربوغا لامة الحرب ودنى من المدينة فى زمرة كثيفة من أتراك وجاءوها من الناحية التى تقوم فيها القلعة ، ولما كنا نظن أن فى إمكاننا دفعهم فقد تهيأنا لمحاربتهم ، إلا أنهم أبدوا بأساً شديداً عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وبذلنا الجهد الجهيد حتى استطعنا الارتداد إلى المدينة التى كان بابها شديد الضيق ، حتى لقد مات الكثيرون مخنوقين تحت أقدام رفاقهم .

وفى خامس أيام الأسبوع كان البعض يحارب خارج المدينة والبعض الآخر داخلها[٢] ، وظلوا على تلك الحال طول يومهم هذا حتىّ تلفّع الكون بالظلام ؛ وفى هذه الأثناء استولى الفزع من معركة البارحة التى دامت حتى الغسق على نفس وليم دى جراندميل وأخيه أوبرى ، وجى تروسوّ ، ولامبرت الفقير [كونت كليرمونت] فتسربلوا بالظلام وانسلّوا مترجّلين تحت جنح الدجى هاربين مصاقبين للسور الموازى لسيف البحر ، حتى لقد عرقت أيديهم وأقدامهم فلم يبق منها سوى العظام ، وصاحَبَهم فى فرارهم هذا كثيرون لا أعرفهم .

فلما بلغوا السفن الراسية فى ميناء سمعان قالوا لملاّحيها : ما تفعلون هنا أيها التعساء ؟ لقد هلك رجالنا عن بكرة أبيهم ، ولم تكن نجاتنا إلاّ بعد عسر شديد ، وذلك لأن الجيش التركى حاصر المدينة من جميع نواحيها

---

(١) أى اليوم الثالث من مقدم كربوغا يعنى يوم ٨ يونيو .

(٢) يستفاد مما جاء فى خطاب الأمراء إلى البابا الوارد فى Epistulae et Chatrae p. 162 أن فئة من الترك قوامها مائة رجل استطاعوا اقتحام القلعة .

ونحن بها » . فلما سمعوا هذا القول اعتراهم الذهول ، ثم مالبث الفزع أن استبد بهم فانطلقوا إلى سفنهم مبحرين ، فهب الترك فى آثارهم وقتلوا كل من عثروا عليه منهم ، ثم أضرموا النار فى المراكب الراسية فى مجرى النهر واستولوا على أسلابهم .

أما نحن الذين بقينا [فى المدينة] فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم ، وأقمنا بينهم وبيننا سدا تناوبنا حراسته ليلا ونهاراً ؛ وفى هذه اللحظة بالذات بلغ من ضيق الحصار علينا أن اضطررنا لأكل خيولنا وحميرنا .

٢٤ — وفى ذات يوم من الأيام كان زعماؤنا مجتمعين فى أعلى المدينة أمام القلعة وهم فى غاية الحزن واليأس حين مثل أمامهم أحد القسس(١) قائلا لهم : « أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا إلى ما رأيته فى الحلم ؟ بينما كنت الليلة نائماً فى كنيسة القديسة مريم — والدة سيدنا يسوع المسيح — إذ ظهر لى مخلّص العالم ومعه أمه وبطرس الطوباوى سيد الحواريّين ، واقترب منى قائلا « أو تعرفنى ؟ » قلت « كلا » .

وحينذاك رأيت صليبا كاملا على رأسه ، فسألنى السيد ثانية « أو عرفتنى الآن ؟ » .

فقلت له : « ما كان لى أن أعرفك لو لم أر على رأسك صليبا يماثل صليب مخلّصنا » .

فقال لى : « أننى هو بعينه » .

وفى الحال ركعت على قدميه متذللا متوسلا إليه أن ينقذنا مما نحن

---

(١) يسمى هذا القسيس ستيفن ڤالنتان ، راجع فى ذلك Raymond d'Aguilers, p. 286

فيه من الكوارث فأجابنى السيد : « لقد ساعدتكم ، وإننى ماض الآن لمعونتكم كما مكنتكم من الاستيلاء على نيقية ، وكما أخذت بقيادكم حتى وصلتم إلى هنا ، ولقد حزّ فى نفسى ما كابدتموه من مشقة أثناء حصار أنطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتى لكم أن تدخلوا المدينة سالمين آمنين ، بيدْ أنكم زنيتم مع نساء فاسدات من النصرانيات والوثنيات ، فتصاعد النّتن حتى بلغ السماء » .

وحينذاك ركعت المقدسة وبطرس الطوباوى على قدميهما مستعطفين إياه متوسلين إليه أن يعين شعبه فى محنته هذه التى ألمت به ، وقال له بطرس المبارك : « ياسيد ، لقد طال احتلال الشعب الوثنى لبيتى الذى لقى من جراء هذا الأمر مساوىء يعجز اللسان عن وصفها ، والآن فلنطرد الأعداء أيها السيد ولتفرح الملائكة فى سماواتها » .

فقال لى السيد : « إذهب إلى شعبى وقل له أن يعود لى وسأرجع أنا إليه ، ودونه خمسة أيام سأبعث إليه بعدها بنجدة عظمى ، ومُرهُ أن يرتل كل يوم هذه التسبيحة مع بقية الآيات « هو ذا الملوك اجتمعوا[(١)] » .

والآن أيها السادة إذا خالجكم الشك فى صدق ما أقول فأذنوا لى أن أعتلى هذا البرج ، وأن أطرح نفسى بيدى إلى أسفله ، فإن سلمت فآمنوا بما قلت ، وإن مسّنى سوء فاقتلونى أو اجعلونى طعمة للنار » .

حينذاك أمر أسقف بوى بإحضار الأناجيل والصليب ليقسم ذلك القسيس على صدق ما قال ، وفى تلك الساعة اتفق زعماؤنا أن يقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم — حيا — أن يفر أو يهرب من الموت أو إنقاذ حياته .

---

(١) مزامير ، ٧٤ : ٤ . وهنا ينتهى الحلم .

ويقال إن بوهيمند كان أول من أقسم ، ثم تلاه كونت صنجيل ، فروبرت النرمندى ، فالدوق جودفروى ، فكونت فلاندر .

أما تنكريد فلم يكتف باليمين بأنه لن يتنحى أبداً فى هذه الحرب فحسب بل وأنه لن يتخلى مطلقاً عن السير فى طريق القبر المقدس حتى ولو لم يبق سوى أربعين فارساً .

فلما تناهى خبر هذه اليمين إلى الجيش المسيحى دبت الفرحة بين رجاله جميعاً .

٢٥ — وكان هناك حاج من جيشنا اسمه بطرس[١] ، تراءى له القديس أندراوس الرسول قبل[٢] دخولنا المدينة قائلا له : « ماذا تفعل هنا أيها الصنديد ؟ » .

فأجابه « وأنت ؟ من أنت ؟ » .

فقال له الرسول « إننى الحوارى أندراوس ، اسمع يا بنى : عرّج — حين دخولك المدينة — على كنيسة القديس بطرس ، وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التى طُعن بها حين رفع على خشبة الصليب » ، ثم اختفى الرسول بعد أن فرغ من هذه العبارة .

ولما كان هذا الرجل[٣] خائفا من الجهر بما أشار به الحوارى عليه

(١) هو بطرس بارتلمى صاحب الرؤى الكثيرة فى هذه الفترة ، وكان من جماعة البروفنساليين .

(٢) اهتم المؤرخ Raimond d'Aguilers,pp.253-55 برؤى بطرس برتلمى وراح يعددها فكانت خمسا تراءى له فيها القديس أندراوس ، أولاها فى ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧ ، وثانيتها يوم ١٠ فبراير ١٠٩٨ ، والثالثة يوم ٢٠ مارس ، والرابعة أثناء ذهابه إلى قبرص ، والخامسة فى ١٠ يونيو ١٠٩٨ حيث صارح الأمراء غداة هذا اليوم بالحلم .

(٣) يعنى بذلك بطرس بارتلمى .

قد أمسك عن مصارحة حجاجنا بذلك الحلم ، وظن أن ما جرى ليس سوى ضغاث أحلام ، وقال « يا سيدى : ترى من يستطيع الإيمان بهذا ؟ » . في هذه اللحظة بالذات أخذه القديس أندراوس وسار به شطر الناحية لتى كانت الحربة مطمورة فيها تحت الأرض .

وفى اللحظة التى كنا موجودين فيها فى الموقف الذى ذكرته آنفا[1] ، عاد القديس أندراوس إلى بطرس وقال له : « لماذا لم ترفع الحربة من باطن الأرض كما أشرت عليك ؟ ألا فاعلم أن لن يُغلب قط قوم يحملون هذه الحربة معهم فى القتال » .

وفى الحال أفضى بطرس إلى حجاجنا بالسرّ الذى استودعه إياه الرسول الحوارى ، فلم يؤمن القوم بما قال بل أنكروه قائلين له « كيف نعتقد صحة هذا القول ؟ » .

والواقع أن الخوف كان مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى ، فذهب بطرس إليهم وأقسم لهم أنه صادق فى كل ما قال ، وأن القديس أندراوس تبدّى له مرتين[2] وقال له : « انهضْ وامضِ إلى شعب الرب وقل له ألاّ يخشى شيئاً ، بل عليه أن يؤمن إيمانا صادقا من كل قلبه بإله حقيقى واحد ، وأنه سينتصر فى كل مكان ، وأن السيد سوف يبعث إليه فى الأيام الخمسة التالية برسالة تملؤكم فرحاً ونشوة ، وإذا أراد الشعب المحاربة فليخرج بأجمعه متحداً إلى القتال ، وسيظهر على جميع أعدائه الذين لن تقوم لهم بعد ذلك أبداً قائمة ضدّه » .

---

(١) وذلك حين كان كربوغا محاصرا الصليبيين (يوم ١٠ يونيو)

(٢) راجع حاشية رقم ٢ ص ٨٢ .

فلما سمع الحجاج بأن القضاء التام على عدوّهم سيكون على أيديهم تنفسوا الصعداء ، وأخذ بعضهم يشجع البعض الآخر قائلا : « هُبُّوا وكونوا شجعانا فطناء ، لأن الرب سيبادر حالا لمعونتنا ، وستكون التعزية لشعبه الذى يرى الآن ما هو فيه من كرب » .

٢٦ — أما الترك الذين كانوا موجودين فى الناحية العليا بالقلعة فقد راحوا يتقدمون حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات يوم فى محاصرة ثلاثة من فرساننا فى برج واقع قبالة قلعتهم، والواقع أن الوثنيين قد وجدوا مخرجاً لهم وطاردوهم بعنف شديد لم يستطيعوا حياله الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج فارسان طعينان ، أما الثالث فقد استبسل فى الدفاع عن نفسه ضد هجوم الترك عليه مدة يوم كامل ، فصرع فى اليوم ذاته اثنين منهم أمام السور بعد أن تكسرت الحراب ، فقد انحطم بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث حراب ، ولقى الرجلان مصرعهما ، أما اسم هذا [الفارس] فهو هيج الثائر ، وكان من جماعة جود فروى دى مونت سكابيوزو[1] .

فلما رأى بوهيمند الموقر أنه من المستحيل عليه أن يجد رجالا لمهاجمة القلعة لوجود الجميع فى بيوتهم من أثر المجاعة والخوف من الترك ، اشتد به الغضب ، وأمر بإحراق المدينة من الناحية القائم بها قصر باغى سيان ؛ فلما تراءى هذا المنظر للجماعة التى كانت بالمدينة غادرت مساكنها وخلّفت كل ماتملك هاربة بنفسها ، فانطلق فريق ناحية الحصن ، ومضى آخر إلى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث إلى باب جود فروى ، أى أن كل فريق هرب شطر الجماعة التى ينتسب إليها .

---

(١) لا يعنى ذلك وجود « جودفروى دى مونت سكابيوزو » فقد ذكرت الجستا فيما سبق ([illegible] ٤ ، ص ١٠) أنه لاقى مصرعه فى وقعة اسكى شهر .

وفى هذه اللحظة هبت فجأة ريح عاصفة لم يستطع أحد ما حيالها أن ينتصب واقفاً مما أحزن بوهيمند العاقل حزناً شديداً جزعاً من أن يمتد الحريق[١] إلى كنيستى القديس بطرس والقديسة مريم وسواهما من الكنائس ؛ واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، وأتت النار على ألفى بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظراً لأنه لم يعد يُسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ولا بشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطاً من الجير والكلس ، وشيدوا حصناً جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك فى القلعة لمحاربتنا ؛ أما الفريق الآخر فقد عسكر فى وادٍ قريب من القلعة .

ولما أقبل الليل لاحت فى السماء نار مقبلة من الغرب ، وأخذت فى التدانى حتى سقطت وسط الجيش التركى ، فاستولى الذهول الشديد على رجالنا وعلى الترك معاً ، فلما تبلّج الصباح فرّ المذعورون جزعاً من هذه الظاهرة العلوية[٢] ، حتى إذا بلغوا باب بوهيمند نصبوا عنده معسكرهم .

أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهاراً ، تاركة إياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ؛ أما بقية الترك فقد أخذت فى محاصرة المدينة

---

(١) يستفاد مما ذكره Raoul de Caen, p. 661 أن صاحب فكرة إشعال النار هو ريموند كونت فلاندر حيث أشار بها على بوهيمند فاستصوبها وفعل ما هو وارد بالمتن أعلاه.

(٢) راجع Raimond d'Aguilers, p. 257 حيث يسهب فى وصف الظاهرة ، ويلاحظ أنه يولى اهتماما خاصا فى كتاباته بكل ما يبدو خارقاً للطبيعة فى نظره ويعتبره بشارة سماوية.

من جميع نواحيها حصاراً شديداً لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلا أو خفاءاً ، وبذلك كنا نعانى الحصار ونكابد الضيق على أيدى أولئك الأعداء الذين كانوا فى العدد الكثيف .

أخذ أعداء الرب الدنسون هؤلاء فى تضييق الحصار علينا ونحن داخل أنطاكية حتى لقد مات الكثيرون منا جوعاً ، وحتى كان الرغيف الصغير يباع ببيزنتية ، ولا حاجة للكلام عن النبيذ ، فكان الفرنجة يأكلون لحوم الخيل والحمير ويتبايعونها ، كما بيعت الدجاجة بخمس وعشرين سوسية ، والبيضة بسوستين ، والجوزة بدنيّة ، وبذلك كان كل شىء يباع بثمن يفوق الوصف ، ومن ثم عمت المجاعة واشتد هولها ، حتى لقد كان البعض يقيم المطابخ يقدم فيها إلى القوم أوراق التين والعنب والحسك ، وأقام البعض الآخرون المطابخ يطهون فيها جلود الجياد والجمال والثيران والجاموس اليابسة ؛ ولقد تكبّدنا كل ذلك الهم وتلك الشدة وأمثالها مما يستحيل وصفها فى سبيل اسم المسيح ، ولكى نفتح الطريق حراً إلى الضريح المقدس . وهكذا بقينا ستة وعشرين يوما فريسة لهذه المحن والمخاوف وأمثالها .

٢٧ — كذلك قام ستيفن كونت شارتر(١) الذى تنكب طريق السداد ، والذى انتخبه كبراؤنا رئيسا أعظم ، فتظاهر بالمرض قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد خزيانا بجلله العار إلى مدينة أخرى حصينة تسمى

(١) هو الذى يرى الكونت ريان أن مؤلف هذه الجستا كان كاتبا له ، راجع مقدمة هذه الترجمة العربية ، ويلاحظ أن المودة كانت قوية بين الكونت وبين الامبراطور الكسيوس الذى أدرك ما انطبع عليه الكونت من حب الظهور فأولاه عناية خاصة منذ مقدمه عليه فى القسطنطينية .

بالإسكندرونة ، ورحنا ننتظر كل يوم مجيئه لمساعدتنا — ونحن كما نحن داخل المدينة — دون معونة تخلصنا مما نحن فيه .

أما هو فما كاد يعلم بأن جيش الترك محدق بنا ومحاصر إيانا حتى تسلل سراً وصعد جبلا[1] قريبا مجاوراً لأنطاكية وشاهد الخيم التى لا يحصيها العدّ ، وإذ ذاك استبدّ به الفزع الشديد وارتد هاربا بجنده على جناح السرعة ، حتى إذا رجع إلى معسكره قوّضه ورحل[2] برجاله مولّيا الأدبار .

ولما دخل على الإمبراطور فى « اكسشهر[3] » سأله الانفراد به وقال له : « أعلم أن قد تم استيلاء الترك على أنطاكية ، أما القلعة فلم تقع فى يدهم بعد ، كما عانى رجالنا شدة الحصار ، والأرجح أنهم لاقوا الموت جميعا على أيدى الترك ، وعليك أن ترجع بأسرع ما يمكنك حتى لا تقع فى أيديهم أنت وجندك الذين معك » .

حينذاك جزع الإمبراطور جزعا شديداً ، واستقدم إليه سرا « جى[4] » أخا بوهيمند وجماعة[5] غيره وقال لهم « أيها السادة ترى ما الذى نحن

---

(١) الوارد فى Brehier : Histoire Anonyme, p. 141, N. 6 أن هذا الجبل يسمى بالجبل الأحمر الذى يشرف على سهل أنطاكية الشمالى .

(٢) يستفاد مما ذكره Foucher de Chartres, p. 228 أن رحيل ستيفن كونت شارتر كان فى اليوم السابق لسقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين ، يعنى بذلك يوم ٢ يونيو ، راجع أيضا Raimond d'Aguilers, p 258

(٣) الواقع أن الذى جاء بالكسيس إلى هذه البلدة هو أنه كان فى طريقه لإنجاد الفرنجة ومساعدتهم فى فتح أنطاكية ، راجع فى ذلك Albert d'Aix, op. cit. p. 416

(٤) هو جى بن روبرت جسكارد وأخو بوهيمند لكن من أم ثانية ، وكان مجىء جى إلى الشرق البيزنطى فى حملة أبيه عام ١٠٨٤ ، غير أنه ترك جيش أبيه وانضم إلى خصمه الامبراطور ودخل فى خدمته ، راجع Chalandon : Histoire de la Domination Normande en Italie, t.I, p. 282.

(٥) كان من هذه الجماعة وليم دى جراندميل وبطرس الأبوسى اللذان يرد ذكرهما فى صفحات الحستا ، وقد أورد هذين الاسمين Brehier : op. cit. d'après Anne Comnène

فاعلوه؟ هاهم الترك قد ضيقوا الخناق على جميع رجالنا ، وربما يكونون قد فتكوا بهم فى لحظتنا هذه أو أخذوهم أسرى كما يذكر لنا هذا الكونت الذى هرب خزيانا ، فعلينا أن نبادر بالتقهقر السريع إذا شئتم حتى لا ينالنا ما نال إخواننا من الهلك المروّع » .

فلما سمع جى — الفارس المصلات — هذه الأكاذيب استخرط فى البكاء هو ومن معه ، وأنوا أنينا طويلا وصاحوا :

« أيها الرب القوى ، أيها الثالوث الواحد ، لماذا رضيت بحدوث جميع هذه الأمور ؟ لماذا قبلت لشعبك المؤمن بك أن يقع فى أيدى عدوه ؟ لماذا سارعت فهجرت أولئك الذين يحاولون تعبيد الطريق إلى هيكلك وجعله آمنا حرا ؟ يارب : لو تحقق ما سمعناه من فم أولئك التعساء فإننا سنهجرك نحن والنصارى الآخرون — ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ أحدنا بعد ذلك أبدا على الدعاء باسمك ! » .

وسرى هذا النبأ المشئوم بين الجيش بأجمعه ، حتى لقد انقضت بضعة أيام لم يهتف فيها أحد من الأساقفة أو المطارنة أو رجال الدين أو الدنيويين من ذكر اسم المسيح(١) .

والواقع أنه لم يستطع أحد أن يقدم على مواساة « جى » الذى دأب على البكاء وضرب صدره ولىّ أصابعه وهو يقول « أواه ياسيدى بوهيمند ياشرف الدنيا وزينتها ، يا من كان العالم يرهبه ويحبه ، واشقوتاه ! أى قاصمة داهية نزلت بى ! أما كنت بالمستحق فى رزيتى أن أرى طلعتك المبجلة ؟ لقد كان ذلك غاية سؤلى وطلبى ! من ذا الذى يمكننى من افتدائك بنفسى

(١) Cf. Albert d'Aix, p. 417

ياسيدى وصديقى الغالى ؟ لماذا لم يختَرِمْنى الموت يوم خرجت من بطن أمى ؟ ولماذا قدر لى أن أعيش حتى أشهد يومك المشئوم ؟ لماذا لم يبتلعنى اليم ؟ لمَ لم يكب بى جوادى فيدق عنقى ؟ كم كنت أرجو أن أكون معك فأنال هذه الشهادة الكريمة وأراك وأنت تموت ميتتك الشريفة ؟».

ولما قدم الجميع لتعزيته ومواساته استفاق من غشيته وقال لهم « ترى ما ظنكم بهذا الفارس الأشيب الذى ضل الصواب ؟ هل سمعتم قط أنه أنجز أى عمل من أعمال الفروسية ؟ كلا لقد اختفى متسربلا بالعار هضيم الجانب كما يختفى الآثم الشقى ؛ ألا فاعلموا جميعا بأن كل ماتخرّس به هذ المنكود إن هو إلا إفك باطل ! »

وفى هذه الأثناء أرسل الإمبراطور تعليماته وأوامره إلى رجاله قائلا لهم : « امضوا وقودوا جميع رجال هذه الناحية إلى بلغاريا ، وجوسوا الإقليم فخربوا كافة الأماكن حتى إذا جاء الترك لم يجدوا شيئاً ما » .

فارتد رجالنا — إن طوعا أو كرها — وهم فى غاية الحزن المقيم المهلك ، ودب الخور فى نفوس كثير من حجاجنا وأصبحوا عاجزين عن متابعة الجيش فتوقفوا عن الزحف ، وهلك بعضهم فى أثناء الطريق ؛ أما الباقون فقد عادوا إلى القسطنطينية .

٢٨ — ولما سمعنا أقوال الذى[١] نقل إلينا إيحاء المسيح على لسان الرسول ، انطلقنا بأقصى سرعة شطر ناحية كنيسة القديس بطرس التى

(١) يقصد بذلك بطرس بارتلمى.

ذكرها ، واشتغل ثلاثة عشر رجلا فى الحفر من الصباح حتى المساء ، وحينذاك[1] عثر هذا الرجل على الحربة فى الموضع الذى أشار إليه ، فتلقاها القوم بفرح شديد وهيبة عظيمة ، وعمت المدينة بهجة شاملة .

وفى هذه اللحظة عقدنا فيما بيننا مجلساً حربياً للتشاور فيما نصنع ، وحينذاك انعقد إجماع زعمائنا على المبادرة بإنفاذ رسول إلى الترك — أعداء المسيح — ليسألهم — على يد أحد المترجمين — هذا السؤال الصريح « عما دعاهم إلى اقتحام أرض المسيحيين وهم فى سورة غضبهم ، وما الذى دفعهم لضرب معسكرهم هناك وفتكهم بخدام المسيح وقتلهم إياهم » ، ولما انتهت المشاورة جاءوا ببعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان Herlouin ، وألقوا إليهم بهذه التعليمات قائلين لهم : « اذهبوا فابحثوا عن جيش الترك الملعون وقصوا عليه هذا كله فى دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم إلى اقتحام أرض المسيحيين التى هى أرضنا نحن أيضاً » .

فلما سمع الرسل هذه الكلمات انطلقوا لتوهم[2] وجاءوا بجمع الكفرة وأفضوا إلى كربوغا ورجاله برسالتهم التى جاء فيها « لقد عجب زعماؤنا وساداتنا كل العجب من أن يدفعكم التهور والحمق إلى اقتحام أرض النصارى التى هى أرضهم هم أيضاً ، أفهل لنا أن نظن ونعتقد أنكم قد قدمتم إلى هنا لاعتناق المسيحية ، أم ترون أن الدافع لكم للمجىء هو إنزال شتى ضروب السوء

---

(١) كان العثور عليها يوم ١٤ يونيو كما جاء فى Raimond d'Aguilers, p. 257 ويلاحظ أن هذا المؤرخ (أى ريموند) هو الذى اعتنق الحربة وقبلها ، وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن « راهبا مطاعا من الفرنجة — وكان داهية من الرجال — كان قد دفن حربة فى مكان بالكنيسة » ثم أدخلهم الموضع ومعهم عامتهم والصناع وحفروا جميع الأماكن فوجدوها » ، راجع ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٧ .

(٢) Foucher de Chartres, p. 347; Albert d'Aix, p. 420.

بالنصارى بمختلف الطرق؟ وإن زعماءنا جميعاً ليسألونكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين التى هدتها قديماً موعظة الرسول بطرس الطوباى إلى الإيمان بمذهب المسيح ، وإن زعماءنا ليأذنون لكم بأخذ كل ما لكم من الخيول والبغال والحمير والإبل والماشية والثيران وجميع ما تملكون ، كما يأذنون لكم بنقل ذلك كله معكم حيث شئتم » .

حينذاك أخذت العزة بالإثم كربوغا — قائد جيش ملك فارس — وجميع من معه وأجابوهم فى غلظة :

« إننا لا نبالى بربكم ولا بنصرانيتكم ولا نميل لشىء منها بل نسحقها وإياكم فى آن واحد سحقاً تاماً ، وما حملنا على المجىء إلى هاهنا إلا دهشتنا من أن يدعى السادة والزعماء الذين ذكرتموهم ملكية أرض سلبناها نحن من الامم المدللة ، أفهل تريدون معرفة ردنا عليكم ؟ . . . عودوا على جناح السرعة إلى سادتكم وقولوا لهم إنهم إذا كانوا يريدون أن يتركوا وينبذوا ربكم الذى تسجدون له ويهجروا شرائعكم التى أنتم عليها الآن فإننا نعطيهم هذه الأرض وما هو أكثر منها ، ونهبهم المدن والحصون فلا يبقى أحد منكم راجلا ، بل ستكونون جميعاً فرساناً مثلنا ، وستتوثق بيننا وبينكم صداقة مكينة ومودة راسخة ، وإن لم يفعلوا ذلك فعليهم أن يدركوا أنهم سوف يلاقون الموت أو نقودهم مكبلين بالأصفاد إلى خراسان حيث يبقون فى أسرنا إلى الأبد ، ونستعبدهم نحن وأبناؤنا على مر العصور » .

سرعان ما انكفأ رجالنا إلينا وأفضوا لنا بكل ما أجابتهم به هذه الطغمة الفظة الغليظة ؛ ويقال إن هرلوان الذين يعرف اللسانين [الفرنجى والفارسى] كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك .

وفى هذه الأثناء ألمت بجيشنا نكبتان لم ندر ما نفعل حيالهما ، أولاهما المجاعة الفظيعة التى أضنتنا، وثانيتهما الفزع الشديد الذى استولى علينا من الترك .

٢٩ — بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذى دام ثلاثة أيام ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التى أقاموها فى شتى الكنائس أخذوا فى الاعتراف بخطاياهم . فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذى هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

ثم أقامت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التى تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندر : وفى الثانية دوق جودفروى ورجاله ، وفى الثالثة روبرت النرمندى مع فرسانه ، وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوى الذى حمل معه[1] حربة المخلص وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلى الذى تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ومنعاً لهم من النزول إلى المدينة ، وكان فى الفريق الخامس تنكريد — ابن المركين — بصحبة رجاله ، وفى الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه .

ولما تدثر أساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين إليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس فى أيديهم ، ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

---

(١) الواقع يؤيد أن أسقف بوى لم يكن يحمل الحربة بنفسه لأنه كان يشك فى حقيقتها ، وكان الذى يحملها فى هذه الوقعة المؤرخ ريموند داجويل ، راجع فى ذلك Runciman : History of the Crusades, Vol. I, p. 246.

ولما رأى كربوغا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة فى إثر الأخرى قال « دعوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيراً بما لو كانوا فى أيدينا[1] » . إلا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ؛ وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة أن يعلن الارتداد إذا شاهد النار تتأجج فى مقدمة الجيش ، إذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفى الحال شرع كربوغا فى الارتداد على مهل شطر الجبل ورجالنا فى إثره بنفس الخطى . ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر بينما أقام رجال الفريق الآخر[2] فى مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا فعله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفروى وكونت نرمندى ، وألقوا قيادتها إلى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب فى التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، كما شوهدت قوات لا يحصيها العد

(١) يتفق هذا تماما مع ما ذكره ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٧ من أن الفرنجة خرجوا متفرقين « فقال المسلمون لكربوقا ينبغى أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل » ، فقال « لا تفعلوا : أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » ولم يكن بد من معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم » .

(٢) هؤلاء هم « المجاهدون » كما سماهم ابن الأثير ، شرحه ، حيث يذكر أن كربوغا انهزم مع المنهزمين « وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة » .

تنطلق من ناحية الجبل ممتطية صهوة جياد بيضاء وبيدها رايات بيض ، فلما شاهد رجالنا منظر هذا الجيش لم يعرفوا ماهيته ولا لمن هذا الجند ، وما لبثوا أن أدركوا أنهم نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمترى ، وينبغى الإيمان بهذه الشهادة ، لأن الكثيرين من رجالنا شاهدوا تلك الآية .

ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار فى الحشائش حتى يراها المقيمون فى خيمهم ويلوذوا بالفرار ، فلما تبين هؤلاء الإشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جودفروى وهيج العظيم وكونت فلاندر إلى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هى الأخرى ، فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الإله الحى الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وإياهم فى القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا فى آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا أن قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا فى أعقابهم حتى جسر العاصى فقلعة تنكريد ، فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته وكثيراً من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والإبل والحمير والحنطة والنبيذ والطحين وكثيراً

غير ذلك مما كان يلزمنا[1] ، فلما استطار نبأ ظهورنا على الترك إلى سمع الأرمن والسريان المقيمين فى المنطقة جروا نحو الجبل ليسدوا عليهم الطريق ، وفتكوا بكل من استطاعوا القبض عليه منهم .

استعدنا المدينة فى سرور عظيم ، فأخذنا نمجد الرب ونشكره على أن آتى جماعته النصر .

أما [أحمد بن مروان] القائد القائم بحراسة القلعة فقد استبد به الذعر حين رأى كربوغا ورجاله يفرون من ساحة القتال أمام جيش الفرنجة ، وسرعان ما بادر إلى طلب الرايات الفرنجية ، فأمر كونت صنجيل — الذى كان مرابطا أمام القلعة — برفع رايته دون سواه ، فأخذها منه وركزها لساعته على البرج ، فلما شاهدها اللمبارديون[2] الموجودون هناك قالوا : « ليست هذه راية بوهيمند » .

فسألهم [أحمد بن مروان] : « فراية مَن إذن ؟ »

فأجابوه : « إنها راية كونت صنجيل » .

وحينذاك تقدم [أحمد بن مروان] واقتلع الراية وردها إلى الكونت ، وفى هذه اللحظة قدِم بوهيمند المحترم وناول رايته [للقائد] التركى الذى تلقاها بيد السرور ، وعقد اتفاقية مع السيد بوهيمند الذى إذن بمقتضاها

(١) يذكر ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ١٨٧ أن الفرنجة قتلوا من المجاهدين ألوفا « وغنموا ما فى المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم » .

(٢) المقصود بذلك جماعة بوهيمند النورمنديون ، (راجع المقدمة) ؛ ويستدل من سياق هذا الكلام على وجود اتصال سرى سابق بين بوهيمند وبين ابن مروان وقد أخفاه بوهيمند عن بقية زعماء الحملة ، راجع أيضاً Raimond d' Aguilers, pp. 260—61.

للكفرة الذين يريدون اعتناق المسيحية بالإقامة معه ، بينما إذن لمن انصرف عنها منهم بالرجوع سالمين آمنين دون أن يمسسهم أدنى ضر أو أذى .

ووافق [بوهيمند] على جميع مطالب الأمير [أحمد بن مروان] ، وسرعان ما أنزل سرجنديته فى القلعة ، ولم تنقض إلا أيام قلائل حتى عمد القائد المسلم وجميع من آثروا الإيمان بالمسيح[١] ؛ أما أولئك الذين فضلوا البقاء على ملتهم فقد بعثهم السيد بوهيمند إلى منطقة المسلمين .

وقد جرت هذه الوقعة فى اليوم الرابع[٢] قبل مستهل يوليو ، ليلة عيد الحواريين بطرس وبولص ، فى حكم السيد عيسى المسيح ، الذى له الشرف والمجد على مر العصور إلى الأبد .

آمين !

* * *

(١) Cf, Foucher des Chartres, pp. 257 - 8; Raimond d'Agilers. p. 261.

(٢) أى يوم ٢٨ يونيو ١٠٩٨ .

— ١٠ —

من تخليص أنطاكية إلى وقعة عسقلان

(من ٢٩ يونيو إلى ١٢ أغسطس ١٠٩٩)

الزحف على بيت المقدس . حملة ريموند بيليه . موت أدعار . حملة الصنجيلي على ألبارة . خلاف الزعماء حول أنطاكية . استيلاء ريموند وبوهيمند على المعرة . زحفها على أورشليم . الوصول أمام عرقة . اتحاد الأمراء عدا بوهيمند . حصار عرقة . رفع الحصار عنها . الوصول لبيت المقدس ومحاصرتها . الاستيلاء عليها . انتخاب جودفروى وموقعة عسقلان

☆ ☆ ☆

٣٠ — هُزِم أعداؤنا قاطبة هزيمة ساحقة . وشكرنا الرب الثالوثه الأوحد على نعمه بما يستحق ، وشرع الترك فى الهرب من كل النواحى ، فكان بعضهم أنصاف أحياء والبعض الآخر منهم قد أثقلته جراحه فراحوا يتساقطون موتى فى الوديان والغابات والحقول وفى الطرقات .

أما شعب المسيح وهم الحجاج الظافرون فقد عادوا إلى البلدة بعد ظهورهم على العدوّ وهم فى غاية الفرح بعد انتصارهم على العدو .

وإذ ذاك بادر سادتنا : الدوق جودفروى ، وكونت ريموند صنجيل ، وبوهيمند ، والسيد روبرت كونت نرمنديا ، وروبرت كونت فلاندر وكثيرون غيرهم إلى إرسال هيو العظيم : ذلك الرجل الموقر الكريم . إلى

إمبراطور القسطنطينية عساه يقدم لتسلم المدينة وتنفيذ الاتفاقات التى أبرمها معهم ، ومن ثم رحل [هيج] إلا أنه لم يعد بعد ذلك أبداً[١] .

بعد أن فرغ زعماؤنا من ذلك التأم شملهم ثانية ، وعقدوا مؤتمراً لإيجاد الوسائل اللازمة لحكم وقيادة الشعب حتى ينجز رحلته إلى الهيكل المقدس الذى تكبدوا فى سبيله كل هذه الأخطار ، وقرّ رأيهم فى هذا الاجتماع على أنه لم يعد فى قدرتهم دخول أرض الكفرة لما تكون عليه زمن الصيف من شدة الجفاف ونضوب المياه ؛ ومن ثم قبلوا أن يؤجلوا ذلك الدخول إلى نهاية شهر نوفمبر ؛ فتفرّق السادة ورحل كل إلى ناحيته[٢] حتى يحين الوقت المتفق عليه ، ونادى الأمراء فى جميع نواحى البلدة بأن كل من يجدون أنفسهم فى ضيق ويحتاجون للدينار والدرهم يستطيعون أن يقيموا معهم إذا شاءوا حسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وأنهم يتلقونهم على الرحب والسعة .

* * *

كان هناك فارس من جماعة الكونت صنجيل ويدعى ريموند پيليه الذى استخدم لنفسه جماعة ليست بالقليلة من الفرسان والمشاة ، فرحل بمن جمعهم من الجند ودخل المنطقة الإسلامية غير هيّاب ولا وجل . وبعد أن جاوز مدينتين وصل إلى قلعة تدعى « تل مَنِّس » ، فبادر أهلها من السريان للاستسلام له من تلقاء أنفسهم ، فأقام بينهم قرابة ثمانية أيام إلى

(١) لا يعنى ذلك أنه لم يؤد المهمة التى نيطت به ، بل يستدل من Raymond d' Aguilers على أنه لقى الامبراطور بالقسطنطينية ؛ راجع أيضاً Albert d' Aix, p. 434

(٢) يقصد صاحب الجستا بذلك أن كلا منهم رحل إلى ناحية من النواحى التى احتلوها قبل استيلائهم على أنطاكية ، فذهب بوهيمند إلى منطقة آسيا الصغرى ، وجود فروى إلى الرها حيث كان أخوه بلدوين .

أن جاءته الرسل مفضية إليه بوجود حصن المسلمين على كثب منه ، وتقوم على حراسته حامية ضخمة ، فنهض الحجاج — فرسان المسيح — فى الحال للزحف على هذا الحصن وأحدقوا به من كل جانب ، وسرعان ما تمكّنوا من الاستيلاء عليه بمعونة السيد المسيح ، وإذ ذاك ألقوا القبض على جميع فلاحى تلك الناحية وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية ؛ أما أولئك الذين آثروا الإيمان بالمسيح فقد أخلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم .

* * *

بعد أن تم ذلك انصرف فرنجتنا تغمرهم الغبطة إلى القلعة الأولى[١] ثم غادروها فى اليوم الثالث[٢] وجاءوا إلى معرة النعمان القريبة منهم ، حيث كان قد اجتمع بها نفر كبير من الأتراك والشرقيين القادمين من حلب ومن جميع البلدان الأخرى ومن الحصون التى فى تلك النواحى ، وخرج البرابرة للهجوم على رجالنا الذين أجمعوا العزم على الالتحام بهم فى القتال وأرغموهم على الفرار ، إلا أنهم مالبثوا أن عادوا وظلوا طول يومهم يعاودون قتالنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا الهجوم حتى المساء ، وكان الحر ثقيل الوطأة فلم يعد رجالنا يطيقون احتمال الظمأ لأنهم لم يجدوا قط قطرة من الماء يطفئون بها غلتهم ؛ ومن ثم رغبوا أن يعودوا سالمين فى أنفسهم إلى حصنهم[٣] .

غير أن السريان والرجالة الذين استولى عليهم الفزع دفعتهم خطاياهم إلى النكوص على أعقابهم ، فلما رآهم الترك وهم يولون الأدبار انطلقوا فى

(١) يقصد بذلك قلعة تل منّس .
(٢) أى يوم ٢٧ يوليو .
(٣) أى تل منّس .

آثارهم وأمدهم النصر بالبأس العظيم ، فأسلم كثير من رجالنا أرواحهم لله الذى دفعهم حبهم إياه للتجمع هناك .

وكانت هذه المذبحة فى اليوم الخامس(١) من شهر يوليو . أما الفرنجة الذين نجوا من الموت فقد عادوا إلى قلعتهم ؛ وبقى ريموند [پيليه] هناك مع قواته فترة من الزمن .

* * *

أما بقية القوم المقيمين بأنطاكية فى فرح ونشوة كبرى فقد فجأهم اشتداد المرض بمدبّر أمرهم وراعيهم أسقف پوى ، وذلك تبعاً لمشيئة الرب التى بمقتضاها وحدها هجر هذا العالم راقداً فى هدوء ، وذهب ليرقد عند السيد يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس فى الأصفاد(٢) ؛ ونتج عن ذلك كرب شديد وغم مقيم فقد شمل الحزن البالغ جميع جيش المسيح قاطبة لأنه(٣) كان عضد الفقراء ومشير الأغنياء ، وكان يأمر الكهنة بذلك ويكرز فيهم ، ولطالما قال للفرسان فى عظاته لهم : « لن يستطيع أحدكم إنقاذ نفسه إن لم يبجّل الفقراء ويواسيهم ، وهيهات أن تتهيأ النجاة لكم عن طريق سواهم ؛ كما أنهم لا يستطيعون العيش بدونكم ، ومن ثم فإن ابتهالاتهم اليومية تتصاعد إلى الرب الذى طالما تسيئون إليه ، فيغفر للمخطئين منكم خطاياهم ؛ وإننى لأسألكم أن تحبوهم حبكم لله وأن تساعدوهم جهد ما تستطيعون » .

---

(١) Hagenmreyer : Ghronologie de la premiére croisade, n. 307.

(٢) أى يوم أول أغسطس ١٠٩٨ .

(٣) يعنى بذلك أدعار أسقف دى پوى .

٣١ — رحل بعد ذلك بقليل[١] الكونت المحترم ريموند دى صنجيل ، وتوغل فى المنطقة الإسلامية حتى بلغ لمدة يدعونها « ألبارة » فشدّ عليها برجاله . وسرعان ما دانت له ، فقتل جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات غير مفرّق بين صغير وكبير ؛ ولما تم له امتلاكها أرجعها إلى دين المسيح ، وعقد مجلساً من ذوى الرأى من جماعته ليعهد فيه بالمدينة إلى رعاية أسقف يرجعها إلى دين المسيح وعبادته ، وليجعل من هذا المسكن الشيطانى معبداً نذره لله الحى القيوم ، وأقام المحاريب على شرف القديسين .

وسرعان ما اختاروا رجلا[٢] عاقلا شريفاً سيّروه إلى أنطاكية لترسيمه [أسقفاً] لها ، وأخرجوا الاختيار إلى حيز التنفيذ .

أما الآخرون الذين بقوا بأنطاكية فقد شملهم الفرح وعمتهم البهجة .

ولما حلّ الأمد المضروب — أعنى عيد جميع القديسين — انكفأ كل زعمائنا إلى أنطاكية وانصرفوا يعدّون العدة لإنجاز الرحلة إلى القبر المقدس قائلين : « لما كانت ساعة الرحيل المتفق عليها قد آذنت بالمجىء فإنه لم يعد ثم وقت أكثر من هذا للجدل » .

* * *

ظل بوهيمند — من جانبه — دائباً طول الوقت على حمل الزعماء على الاعتراف بالعهد[٣] الذى عاهدوه عليه جميع السادة بتملكه المدينة ، غير

---

(١) كان ذلك بعد ١١ سبتمبر ، راجع فى تحقيق ذلك Brehier, op. cit. p. 167, n. 4.

(٢) كان هذا الرجل الذى اختاروه أسقفاً يدعى « بطرس الناربونى » ، وهذه هى أول أسقفية لاتينية فى بلاد الشام ، راجع Raymond d' Aguilers, p. 266

(٣) فيما يتعلق بهذا العهد راجع ما سبق ، رقم ٢٠ .

أن كونت صنجيل لم يعتبر نفسه مرتبطاً بأى اتفاق مع بوهيمند مخافة أن يكون فى هذا الاتفاق نكث لليمين مع الإمبراطور ؛ وتعددت الاجتماعات التى عقدوها فى كنيسة القديس بطرس للبحث فيما ينبغى عمله ، وقرأ بوهيمند نص الاتفاق ، وأطلعهم على اتفاقه معه ؛ وفعل كونت صنجيل مثل فعله حيث ذكر شروط اليمين التى قطعها للإمبراطور نزولا على نصيحة بوهيمند[1] .

وحينذاك غادر الاجتماع الأساقفة والدوق جودفروى وكونت فلاندر وكونت نرمنديا والسادة الآخرون ، وانطلقوا شطر الناحية التى يوجد بها كرسى القديس بطرس ليتفقوا على حكم يقضون به بين الاثنين ، ودفعتهم خشيتهم من عرقلة السير إلى القبر المقدس إلى كتمان ما أجمعوا الرأى عليه وقرروه فيما بينهم ؛ وأخيراً صاح كونت صنجيل بهم « أقول لكم — حتى لا نهجر طريق القبر المقدس — إنى راضٍ بكل ما اتفق عليه الدوق جودفروى والكونت فلاندر وروبرت النرمندى وغيرهم من السادة إذا قبل بوهيمند أن يصحبنا ؛ وإنى نازل على ما قضوا به إلا فيما يتعلق بوفائى بعهدى للإمبراطور » .

فاستصوب بوهيمند قوله هذا كل الاستصواب ، وجاء الاثنان فأقسما بين أيدى الأساقفة أن لن يحاول أحدهما — بأية وسيلة ما — تعويق الزحف إلى القبر المقدس .

وإذ ذاك أخذ بوهيمند فى مشاورة رجاله ليكفل تموين القلعة القائمة على الجبل العالى بالرجال والأقوات ، وفعل كونت صنجيل فعله فأخذ

(١) أنظر ما سبق ، رقم ٦

هو الآخر فى الاتفاق مع رجاله بشأن تموين قصر الأمير ياغى سيان والبرج العالى القائم عند مدخل الجسر تجاه ميناء القديس سمعان ، وأقول شاور جماعته بشأن إمداد ذلك بالرجال والذخيرة لمدة طويلة .

٣٢ — مدينة أنطاكية رائعة عظيمة ، إذ يوجد داخل أسوارها أربعة جبال ضخمة شامخة الذرى ، ويقوم على أعظمها ارتفاعاً حصن حصين قوى جيد البناء ، وعلى السفح تمتد المدينة الرائعة المحبوبة ، قد ازدانت بكل ضروب الفتنة ، لما تحويه من الكنائس العدة التى تكاد تبلغ ثلاثمائة كنيسة ، كما تضم ستين ديراً ، ويشرف بطركها على مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً .

والمدينة محاطة بسورين : أكبرهما شديد الارتفاع ، عجيب البناء ، مشيد تشييداً عجيباً ، ففيه أربعمائة وخمسون برجاً ، وأينما ولى المرء وجهه شدهه جمال المدينة .

وتحيط بها من الشرق أربعة جبال عظيمة ، ويجرى فيها من الناحية الغربية نهر يسمى بنهر فرفر [وهو العاصى] ، حيث يتدفق على مقربة من أسوارها .

وهذه المدينة بالغة الشهرة ، فقد تولاها فى مبدأ الأمر خمسة وسبعون ملكا ، أولهم « أنتيوكس » الذى سميت المدينة باسمه وقد أقام الفرنجة على حصارها مدة ثمانية أشهر ويوم واحد ثم حاصرهم الترك وغيرهم من الوثنيين مدة ثلاثة أسابيع ، إلا أن الغلبة كانت للمسيحيين بفضل معونة الرب والضريح المقدس ، وأقمنا مطمئنين راغدين مدة خمسة أشهر وثمانية أيام .

٣٣ — اتخذت هذه التدابير الدقيقة فى شهر نوفمبر ، وإذ ذاك غادر ريموند

كونت صنجيل مدينة أنطاكية بجيشه ، وبلغ مدينة تدعى « الروج » ثم أخرى تسمى « ألبارة » ، وقبل نهاية شهر نوفبر بأربعة أيام أدرك مدينة « المعرة » وقد اجتمع بها حشد كثيف من الشرقيين والترك والعرب وسواهم من الكفار ، فلما كان اليوم التالى هاجمها الكونت .

وبعد فترة قصيرة من الزمن سار بوهيمند بجيشه فى آثار الكونتات واتصل بهم يوم الأحد .

وفى يوم الاثنين[1] حملوا حملة عنيفة على المدينة من جميع نواحيها ، واستبسلوا استبسالا عظيما شديداً مكّنهم من تثبيت السلالم على الأسوار ، غير أن قوة الكفار كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى .

لما رأى سادتنا ألا جدوى من ذلك العمل وأنهم لا يجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيَّد حصناً خشبياً باسقاً منيعاً ، يدور على أربعة دواليب وجهّزه بما يحتاج إليه ؛ فكان يوجد فى الطابق الأعلى جماعة من الفرسان مع « إفرار الصياد » الذى كان أشدّ من يقرع الطبول ؛ ومن تحتهم الفرسان المدرَّعون الذين يدفعون الحصن إلى قرب الأسوار ليلاحق أحد الأبراج . فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا فى الحال إلى وضع آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة وكادوا أن يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الإغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، إلا أن الرب القوى لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى — وفيهم وليم مونت پلييه

---

(١) هو يوم الاثنين ٢٩ نوفبر ١٠٩٨ .

وكثيرون غيره — فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على بجناتهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان فى داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هنساك آخرون يستعملون رماحاً عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمراً على هذه الصورة حتى المساء .

كان يوجد خلفه الحصن جماعة القسس والشمامسة فى مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون لله ويبتهلون إليه أن يرفع المعرة عن شعبه ، وأن يعلى كلمة المسيحية ويلاشى الوثنية ، وكان هناك فى ناحية أخرى فرساننا وهم فى حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة الوثنيين كانت من الشدة بالدرجة التى عاقت رجالنـــا عن أى تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوفييه دى لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذى سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، إلا أنه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلماً آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ؛ غير أن الشرقيين هاجموهم هجوماً عنيفاً على السور وعلى الأرض ، وأشرعوا نحوهم الأسنّة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فألقوا بأنفسهم من فوق السور .

وفى الوقت الذى كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على قمة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا

حائطهم استبد بهم الرعب وانطلقوا هاربين إلى داخل المدينة ، وقد حدث ذلك كله يوم السبت ١١ ديسمبر وقت صلاة الستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيمند — على لسان مترجمه — زعماء المسلمين بالالتجاء — هم ونساؤهم وأطفالهم ومتاعهم — إلى قصر واقع جنوب الميناء ، وأخذ على نفسه عهداً آمنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعاً إلى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل ثمين مما وجدوه فى المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من راحوا يعثرون عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلدة دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيمند على من أمرهم بالدخول إلى القصر الذى عيّنه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلى . ثم قتل البعض وساق الباقين إلى أنطاكية ليباعوا بها .

أقام الفرنجة فى هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفى أثناء ذلك مات [وليم] أسقف أورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئاً يستولى عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعاً ويطهونها ليقتاتوا بها .

٣٤ — لم يستطع بوهيمند أن يصل إلى اتفاق مع السكونت صنجيل على ما طلبه[١] ، وقام وهو فى سورة غضبه فقفل راجعاً إلى أنطاكية ،

(١) كان بوهيمند قد طلب من السكونت ريموند الصنجيلى أن يؤجل رحيله إلى المعرة ، وكره الصليبيون المحاربون تعويق الرحلة إلى بيت المقدس فألحوا على ريموند فى السفر إلى القدس فأجاب وحدد وقتاً لبداية السفر ، مما أحنق بوهيمند فرجع إلى أنطاكية .

ولم يتوان الكونت ريموند عن أن يبعث رسله إلى الدوق جود فروى وكونت فلاندر وروبرت كونت نرمنديا وبوهيمند يطلب منهم القدوم إلى « الروج » لمفاوضته ، فجاء جميع السادة وتشاوروا لإيجاد خطة تحفظ لهم شرف السير إلى الضريح المقدس الذى نهضوا من أجله بحربهم الصليبية ، وقدموا فى سبيله حتى بلغوا هذه الناحية .

ولكنهم لم يستطيعوا حمل بوهيمند على الاتفاق مع كونت ريموند فقد أبى ذلك إلا إذا ردّ له الكونت أنطاكية[1] ، فامتنع الكونت عن استجابة هذا الطلب بسبب العهد الذى كان قد قطعه للإمبراطور ، وفى النهاية عاد الكونتات والدوق إلى أنطاكية بصحبة بوهيمند ، وقفل الكونت ريموند راجعا إلى المعرة حيث كان الحجاج موجودين ، وطلب إلى فرسانه تجهيز القصر والحصن الذى كان موجودا أعلى ميناء الجسر .

ولما رأى ريموند أن ليس هناك من أحد من القادة يرغب فى السير إلى الضريح المقدس من أجله فقد خرج من المعرة حافيا يوم ١٣ يناير وقصد كفر طاب وبقى بها ثلاثة أيام حيث انضم إليه كونت نرمنديا ، وبعث أمير[2] شيزر رسلا من قبله إلى الكونت — وهو بالمعرّة وكفر طاب — يعلنون إليه رغبة مولاهم فى موادعته ، وأنه يقبل أن يشاطره الكونت بعض ما يملك ، وأنه عامل جهده على راحة الحجاج ويقسم له على ذلك بدينه ؛ كما أنه يتعهد له بألا ينالهم أى أذى داخل حدود أرضه ، ويؤكد أنه سيمده — عن طيب خاطر — بما تحتاجه الجياد والرجال من الأقوات .

(١) كانت قوات ريموند الصنجيلى تحتل قصر الأمير ياغى سيان وبعض نواحى أنطاكية ، وكان بوهيمند يكره أن يشاركه أحد لا سيما الصنجيلى — فى احتلال أنطاكية .

(٢) سماه صاحب الجستا فى المتن بملك شيزر « Rex Cesaree » وكذلك الحال إزاء صاحبى طرابلس وحمص .

رحل رجالنا حتى إذا صاروا على كثب من شيزر الواقعة على نهر العاصى نصبوا معسكراتهم هناك . فانزعج أمير شيزر حين رأى أن الفرنجة قد ضربوا خيامهم قرب المدينة ، وأمر بمنع المثونة عنهم إن لم يبتعدوا عن ضواحى البلد .

وفى اليوم التالى أنفذ صحبتهم رسولين من الترك ليدلاهم على مخاضة يعبرون عندها النهر وليمضيا بهم إلى حيث يجدون الغنيمة الطيبة ؛ فوصلوا إلى واد تشرف عليه إحدى القلاع ونهبوا هناك أكثر من خمسة آلاف رأس من الغنم وجزءً غير قليل من القمح وغير ذلك من السلع التى يمكن أن تعين جميع القوات المسيحية ، واستسلمت حامية القلعة للكونت وأعطته بعضا من الجياد والذهب ، ثم أقسمت له بدينها ألا تمس الحجاج بأذى ما .

وأقمنا هناك مدة خمسة أيام[1] ، ثم رحلنا — يعمنا الفرح — لنعسكر قرب حصن للعرب ، فخرج إلينا صاحبه وعقد اتفاقا مع الكونت .

وصلنا — بعد مغادرتنا هذه الناحية — إلى مدينة عظيمة زاخرة بالذخيرة وواقعة فى أحد الوديان يسمونها « رفنية » ، فلم يكد نبأ قدوم الفرنجة يترامى إلى سمع سكانها حتى غادروها وتركوا ما بها من البساتين الممتلئة بالبقول وخلوا مساكنهم المذخورة بمواد القوت وهاموا على وجوههم ؛ أما نحن فقد غادرنا هذه المدينة بعد ثلاثة أيام[2] من إقامتنا بها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخاً ، فلما جاوزناه دخلنا وادى البقيعة[3] حيث كانت توجد

(١) وذلك من ١٧ يناير ١٠٩٩ حتى ٢٢ منه .

(٢) وذلك يوم ٢٥ يناير ١٠٩٩ .

(٣) ورد اسمه فى الأصل اللاتينى « Sem » ، لكن راجع فى هذا الاسم : Brehier : Hist. Anonyme, p. 183, note 3. حيث ذكر أنه واقع بين جبل عكار وجبل الأنصارية ويمر به الطريق الواصل بين حماة وطرابلس

ذخيرة وفيرة ، وبقينا هنا خمسة عشر يوما[١] .

كان يوجد بالقرب منا قلعة اعتصم بها جمهور كثير من الكفار [٢] ، فهاجمنا هذه القلعة ، وكان نصرنا أمراً مفروغا منه لو لم يخرج الشرقيون من أبوابها قطيعاً كبيراً من الحيوان ، فانصرف رجالنا إلى خيمهم محملين بجميع أنواع الغنائم ، وفى الصباح الباكر طوى رجالنا خيمهم وجاءوا لمحاصرة القلعة قاصدين من وراء ذلك إقامة معسكراتهم هناك ، غير أن جميع القوم الكفرة لاذوا بأذيال الفرار وخلفوا القلعة وراءهم ليس بها من أحد ، فاقتحمها رجالنا ووجدوا بها كميات كبيرة من القمح والنبيذ والدقيق والزيت وكل ما يحتاجونه .

وهنا احتفلنا بعيد [٣] دخول القديس مريم الهيكل ، واستقبلنا رسلا من مدينة حمص أنفذهم أميرها [٤] إلى الكونت ومعهم الجياد والمال ، وعقد معه معاهدة اتفق فيها معه ألا يمس النصارى بما يضايقهم ، بل تعهد له باحترامهم والمحافظة عليهم ؛ وبعث أمير [٥] طرابلس رسالة من قبله إلى الكونت [ريموند] يسأله الموادعة والاتفاق والارتباط معه برباط المودة إذا أحب ، وأنفذ إليه عشر جياد وأربعة بغال وبعض المال ؛ غير أن الكونت صرح أنه لا يقبل مسالمة أمير طرابلس إلا إذا اعتنق النصرانية .

---

(١) وذلك من ٢٩ يناير حتى ١٤ فبراير ١٠٩٩ .

(٢) المقصود بالكفار هنا جماعة الكرد الذين كانوا ينزلون هذه القلعة المسماة « بالكرك » ، راجع فى ذلك Brehier, op. cit. p. 183, n. 5.

(٣) وذلك يوم ٢ فبراير ١٠٩٩ .

(٤) أطلق الأصل على جناح الدولة أمير حمص لقب « ملك » Rex ، راجع ماسبق ، ص ١٠٨ ، حاشية رقم ٣ .

(٥) هو أبو على فخر الملوك بن عمار أمير طرابلس .

بعد أن غادرنا لهذا الوادى الجميل بلغنا مكانا حصينا اسمه « عرقة » وذلك يوم الاثنين منتصف فبراير وأقمنا به خيامنا، وكان الوادى يعج بحشد كثيف من الكفرة الذين عملوا بهمة عجيبة فى تقوية هذا المكان والاستبسال فى الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجلا من فرساننا للزحف على طرابلس الواقعة على كثب منا ، فصادف هؤلاء الأربعة عشر فريقا من الترك يبلغ الستين ومعهم غيرهم وقد ساقوا أمامهم الرجال والحيوان ، فكان العدو يقرب من ألف وخمسمائة أو يزيد ، فتدرع رجالنا بالصليب وكروا عليهم فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا منهم على ستة جياد .

* * *

وانفصل عن جيش الكونت ريموند كل من ريموند بيليه وريموند فيكونت تورين ووصلا أمام بلدة طرطوس التى نهض للدفاع عنها جمع غفير من الكفرة ، فنازلاها نزالا عنيفا ، فلما جاء المساء ارتدا إلى إحدى النواحى ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدا ناراً عظيمة كما لو كان الجيش كله موجوداً هناك ، فاستولى الذعر على الكفرة ، وتسربلوا بالظلام وانسلوا هاربين خفية وخلوا المدينة وراءهم وتركوا بها متاعهم الكثير .

وكان للمدينة إلى جانب هذا ميناء (١) فخم يطل على البحر ، فتأهب رجالنا فى اليوم التالى لمهاجمته ، غير أنهم وجدوا المدينة خالية ، فدخلوها وظلوا ناصبين خيامهم حتى لحظة محاصرتهم لعرقة .

وكانت تتاخمها مدينة أخرى تدعى « مرقية » فعقد واليها معاهدة مع رجالنا وأدخلهم إياها رافعين راياتهم .

---

(١) يقصد بذلك ميناء اللاذقية .

٣٥ — جاء الدوق جود فروى وبوهيمند وكونت فلاندر ، حتى إذا اقتربوا من مدينة اللاذقية انفصل [١] بوهيمند عن بقية الجماعة ، وقفل راجعا إلى أنطاكية .

أما البقية فقد تابعت سيرها وحاصرت بلدة تدعى «جبلة» ، وعلم الكونت ريموند دى صنجيل أن هناك جمهورا غفيرا من الوثنيين زاحف علينا لمقاتلتنا ، وسرعان ما عقد مجلساً من رجاله اتفقوا فيه على مطالبة السادة القائمين بحصار جبلة بالنهوض لنجدتهم ، فلما تناهى ذلك الخبر إلى سمعهم [٢] عقدوا موادعة مع أميرها وتصالحوا معه وأخذوا منه الجياد والمال ، ثم غادروا البلد قادمين لمساعدتنا ، غير أنه ألقىَ إلى الكفرة ألاّ يقاتلونا ، وإذ ذاك ضرب الكونتات معسكراتهم خلف النهر وساهموا بنصيب فى حصار هذا المكان .

* * *

لم يمض غير قليل من الزمن حتى زحف رجالنا على طرابلس ، ووجدوا خارج المدينة جماعة من الترك والعرب والشرقيين ، فهاجمهم رجالنا وحملوهم على الفرار وقتلوا فئة كبيرة من أشراف البلد ؛ واستمرّ القتل فى الكفرة وتدفقت الدماء حتى اصطبغت المياه التى تغذّى المدينة والآبار باللون

---

(١) كان بوهيمند كثير الخشية من مؤامرة تدبر ضده فى أنطاكية فى أثناء غيبته وهذا هو السبب الذى من أجله انفصل عن بقية المحاربين وكر راجعاً إلى أنطاكية ، راجع Albert d' Aix, p. 453

(٢) كان السبب فى هذا هو ما شعر به ريموند الصنجيلى من ضعف قواته عن احتلال عرقة ، أضف إلى هذا ما روته الشائعات من نهوض الخليفة العباسى لنجدة أهلها مما أزعج بال الصنجيلى ، غير أنها كانت شائعة كاذبة ، راجع فى ذلك Raimond d'Aguilers, p. 278.

الأحمر القانى ، وعمّهم الحزن والأسى ، واشتدّ الذعر بالباقين حتى إنه لم يعد لأحد منهم الجرأة على مجاوزة أبواب البلد .

وفى يوم آخر أخذ رجالنا فى الزحف حتى إذا صاروا على كثب من وادى « البقيعة » صادفوا بعض الثيران والماشية والحمير وكثيراً من الأنعام والجمال ، فكانت عدة ما استولوا عليه من الحيوان ثلاثة آلاف رأس .

وحاصرْنا المكان (١) المشار إليه آنفاً حصاراً دام ثلاثة أشهر إلا يوماً واحداً ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة السيد المسيح مدة أربعة أيام قبل منتصف أبريل (٢) ؛ وكانت سفننا (٣) قد اقتربت إذ ذاك منا حيث بلغت أحد الموانئ وظلت بهَ طول فترة هذا الحصار ، وحملت إلينا ذخيرة وفيرة من القمح والنبيذ واللحم والجبن والشعير والزيت ، فتوفّر لدينا ذلك كله أثناء الغزو .

وفى خلال هذا الحصار سعد كثير من رجالنا بالشهادة ، وكان من بينهم أنسِلم دى ريبومونت (٤) ووليم بيكاردى وكثيرون غيرهم ممن لا أعرفهم .

وتوالت رسل [ابن عمار] أمير طرابلس على السادة يطلب إليهم مغادرة المكان وموادعته ، فلما علم رجالنا بالمحاصيل الجديدة وأبصروها

---

(١) يقصد بذلك « عرقة » .

(٢) أى يوم ١٠ منه .

(٣) كانت هذه السفن تتألف من سفن انجليزية وأخرى جنوية ، راجع Raimond d' Aguilers, p. 290.

(٤) Foucher des Ghartres, p. 270 ; Raimond d'Aguilers, p. 276.

(لأنه فى منتصف مارس كنا نأكل البقول الجديدة وفى منتصف أبريل حصدنا القمح) أقول لما علم رجالنا بذلك عقد الدوق جود فروى وريموند كونت صنجيل وروبرت كونت نرمنديا وكونت فلاندر اجتماعا فيما بينهم وقرروا أن من صالحهم إتمام الرحلة إلى بيت المقدس وقت جنى المحاصيل الجديدة.

٣٦ — إذ ذاك غادرنا هذا المكان وبلغنا مدينة طرابلس يوم الجمعة ١٣ مايو وقضينا بها ثلاثة أيام ، فسلمنا [أميرها] أكثر من ثلثمائة حاج كانوا فى أسره وأعطانا خمس عشرة ألف قطعة ذهبية وخمس عشرة هدية غالية القيمة ، وأمدّنا أيضا بذخيرة كبيرة من الجياد والحمير وشتى أنواع المحاصيل التى أغنت جميع جند المسيح ، واتفق مع زعمائنا على أن يتنصّر ويتسلم أرضه منهم إذا هم استطاعوا الظهور على خليفة مصر فى الحرب التى أعدّها لهم وإذا تمكنوا من امتلاك بيت المقدس .

وبعد أن تم الاتفاق على ذلك غادرنا المدينة يوم الاثنين [السادس عشر] من شهر مايو ، وأسرينا طول الليل فى طريق ضيق شديد الانحدار وأدركنا قلعة « الباطرون » حيث أدبنا السير إلى مدينة مجاورة للبحر يسمونها « جبيل »(١) ، وكابدنا المشقة من جرّاء الظمأ المضّ ، وألمّ بنا الوهن حتى بلغنا نهراً يدعونه « نهر إبراهيم » .

وبعد أن سرنا ليلة(٢) صعود السيد ونهارها فى طريق شديد الضيق جئنا إلى جبل كنا نظن أننا واجدون عنده العدو كامنا يترصّدنا ، إلا أن رعاية الرب لنا أفقدتهم الجرأة على الاقتراب منا ، فتقدمنا فرساننا وعبّدوا الطريق أمامنا وبلغنا بعدئذ مدينة تطل على البحر اسمها « بيروت » ، خرجنا

(١) سماها الأصل « Zebar » .
(٢) وذلك يوم ١٩ مايو .

منها إلى أخرى تدعى « صيداء » ، ثم إلى غيرها يقال لها « صور » ، ومن صور وصلنا إلى مدينة عكا ، وأفضى بنا السير من عكا إلى مكان حصين اسمه يافا ، ونصبنا معسكرنا قرب «قيصرية» حيث احتفلنا بعيد العنصرة ، وذلك يوم ٢٩ مايو .

جئنا بعد هذا إلى مدينة الرملة التي أخلاها المسلمون خوفا من الفرنجة ، وكانت على مقربة كبيرة منها كنيسة مقدسة دفن فيها جثمان القديس جورج الطاهر ، وذلك لأنه كان قد نعم بالشهادة السعيدة فى هذه البقعة على أيدى الوثنيين الكفرة من أجل اسم المسيح ، فعقد قادتنا مجلساً قرروا فيه انتخاب أسقف[1] لرعاية هذه الكنيسة وإدارتها ، ووهبوه الأعشار ، وأمدّوه بالذهب والفضة والجياد وغيرها من السائمة والأنعام حتى يكون قادراً على أن يعيش هو ورجاله عيشة خالصة مشرفة ، فأقام مسرورا .

٣٧ — أما نحن فقد عمنا الفرح وتابعنا الزحف حتى بلغنا مدينة بيت المقدس وذلك يوم الثلاثاء [٦] يونيو فى الساعة الثامنة ، وحاصرناها حصاراً يدعو إلى الإعجاب ، وضيّق روبرت النرمندى الخناق عليها من ناحية الشمال قرب كنيسة أول الشهداء القديس اصطيفان من الجهة التى قُتل بها رجما فى سبيل اسم المسيح .

وكان إلى جانبه روبرت كونت فلاندر .

وحاصرها من الناحية الغربية الدوق جودفروى وتنكريد .

أما الكونت صنجيل فقد أقام فى الناحية القبلية على جبل صهيون قبالة

(١) كان هذا الأسقف قسيسا نرمنديا من أسقفية روان واسمه روبرت وذلك بناء على ما ورد فى Guillaume de Tyre, p. 313 ، راجع أيضا Reimoud d'Aguilers, 292

كنيسة القديسة الست مريم أم الإله ، فى البقعة التى احتفل فيها السيد وتلاميذه بالعشاء السرّى .

وفى اليوم الثالث دفعت الرغبة فى القتال كلا من ريموند بيليه وريموند دى تورين للانفصال عن الجيش ، فصادف فارسا المسيح مائتى عربى فقاتلاهم ، وعاونهما الله فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا كثيراً منهم واستوليا على ثلاثين حصانا .

وفى يوم الاثنين[1] هاجمنا البلدة هجوماً عنيفا ، وكانت سطوتنا عليها شديدة ، ولو كانت السلالم مهيأة ومعدّة لسقط البلد فى أيدينا ، ومع ذلك فقد حطمنا السور الصغير ورفعنا السلم على السور الرئيسى ، وصعده فرساننا وضربوا عن قرب جماعة الشرقيين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وناوشوهم بالرماح ، وكان قتلاهم أكثر عدداً من قتلانا .

وفى أثناء هذا الحصار بقينا عشرة أيام لا نجد خلالها الخبز نشتريه ، ودامت تلك الشدة حتى جاءتنا نجدة من سفننا ، ووقعنا فريسة الظمأ المحرق ، واحتملنا أشدّ المخاوف حتى لقد كنا نمشى ستة أميال لإرواء جيادنا وحيواناتنا الأخرى ، غير أننا وجدنا الماء عند نبع « سيلو » الواقع عند سفح جبل صهيون ، إلا أنه كان يباع بيننا بثمن جد غال .

بعد أن قدم علينا الرسول من قبل هذه السفن اجتمع سادتنا للتشاور وقرروا إرسال جماعة من الفرسان لحماية الرجال والمراكب الراسية فى ميناء يافا ، فلما كان الصباح انفصل مائة فارس عن جيش ريموند بيليه وآكاردى مونتمول ووليم السبرانى ، ومضوا ثابتى الجنان شطر الميناء .

---

(١) وذلك يوم ١٢ يونيو ١٠٩٩ .

ثم انفصل ثلاثون من فرساننا عن البقية ، وصادفوا سبعمائة رجل من العرب والترك والشرقيين الذين فى جيش خليفة مصر ، فاشتد فرسان المسيح فى الهجوم عليهم ، غير أن تفوّق العدو العددى مكّنه من الإحداق برجالنا من جميع الجهات ، وقتل أكاردى مونتمول وغيره من المشاة الفقراء .

أحدِق برجالنا، وأخذوا يتوقعون الموت حين وفد رسول على ريموند بيليه يقول له « ماذا تفعل هنا بهؤلاء الفرسان ؟ هؤلاء رجالنا فى قبضة العرب والترك والشرقيين ، ولعلهم الآن قد قُتلوا عن آخرهم ، ألا هُبَّ فأنقذهم » . فلما استطار هذا النبأ بين رجالنا بادروا إلى الرحيل ، وأغذوا السير حتى أدركوهم والظى ملتحمة ، فلما رأى الشعبُ الوثنىُّ فرسانَ المسيح انقسم إلى كتيبتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وكروا على أولئك الكفرة كرة عنيفة التحم فيها كل فارس بخصمه ، ولما أدرك الأعداء أن لاقبل لهم بمقاومة بطش الفرنجة استبد بهم الذعر العظيم وولوا مدبرين غير مقبلين ، ورجالنا فى آثارهم يتعقبونهم مسافة تقرب من أربعة أميال ، وقتلوا جمعاً غفيراً منهم ، كما أخذوا فريقاً آخر حياً ليدلوهم على الطريق ، واستولوا على مائة وثلاثة جياد .

وفى أثناء هذا الحصار كابدنا وطأة الظمأ ، حتى لقد كنا نخيط جلود الثيران والجاموس لنحمل فيها الماء مسافة ستة أميال ، وكان الماء الذى حملناه معنا فى الأوانى قد أسن وانتن ، واقتصر طعامنا اليومى على خبز الشعير مما صار مثار حزننا ومبعث أسانا ؛ والواقع أن الشرقيين عملوا من ناحيتهم سراً على نشر المرض بين رجالنا بإفسادهم مياه الينابيع والعيون ، كما كانوا يجمعون كل مايجدونه ويخفون أنعامهم فى الكهوف والمغارات .

٣٨ — تدارس سادتنا إذ ذاك الوسائل التى يهاجمون بها المدينة بواسطة

الكباش حتى يتمكنوا من دخولها وأداء فروض العبادة عند قبر مخلصنا ، فبنوا برجين من الخشب وبعض آلات لا بأس بها ، وأقام الدوق جود فروى حصناً جهزه بالآلات ، وفعل الكونت ريموند مثل فعله ، وكانوا يجلبون الأخشاب من آفاق قاصية ، فلما رأى الشرقيون مانصبه رجالنا من تلك الآلات حصنوا المدينة تحصيناً عجيباً ، وقوموا الدفاع عن الأبراج أثناء الليل .

فلما تبين لسادتنا أضعف جوانب المدينة — وهو الناحية الشرقية منها — أخذوا فى ليلة السبت[١] فى نقل الآلات ونقل حصن من الخشب ، فلما تنفس النهار نصبوا الكباش واستعدوا للقتال وشغلوا أنفسهم أيام الآحاد والاثنين والثلاثاء بتجهيز الحصن .

أما الناحية الجنوبية فقد أخذ الكونت صنجيل فى ترميم آلاته بها ، وكنا فى هذه اللحظة بالذات نكابد الظمأ المميت حتى لقد كان الرجل منا يعجز عن أن يجد جرعة كافية من الماء تروى غلته لقاء دينار .

وفى يومى الأربعاء والخميس[٢] حملنا حملة صدق على المدينة من جميع نواحيها ، غير أنه قبل استيلائنا عليها أعلن الأساقفة والقساوسة بمواعظهم وخطبهم وجوب القيام بتطواف احتفالى حول أسوار بيت المقدس تمجيداً للرب ، وأن يصحب هذا التطواف القيام بالصلوات وإخراج الصدقات والصيام .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة[٣] قمنا بهجوم عام على البلد دون أن

---

(١) ٣ يوليو ١٠٩٩ .
(٢) أى ١٣ ، ١٤ يوليو ١٠٩٩ .
(٣) أى ١٦ يوليو ١٠٩٩ .

نستطيع أخذها ، فأصبحنا فى ذهول وخوف شديدين . ولما دنت اللحظة التى تحمل فيها سيدنا يسوع المسيح العذاب من أجلنا برفعه على الصليب أخذ فرساننا الواقفون على الحصن فى التقاتل بعنف ، وكان بينهم الدوق جود فروى وأخوه الكونت أستاش .

وفى هذه الأثناء تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار إلى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا فى مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم فى دماء القتلى .

أما الكونت ريموند الذى كان مرابطا فى الوسط فقدقاد جيشه ، ودفع حصنه الخشبى حتى دانى السور ، إلا أنه كان يوجـــد خندق بين الحصن والسور ، وأعلن منحه ديناراً لكل من يُلقى بثلاثة أحجار فى الخندق ، واستغرق ردمه ثلاثة أيام وثلاث ليال سويا ، فلما تمت تسويته بالأرض جذبوا الكبش ودفعوه إلى السور ينطحه .

أما فى الداخل فقد حمى وطيس القتال بين المدافعين عن المدينة وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونهم بالنار الإغريقية والأحجار ، فلما علم الكونت بأن الفرنجة داخل المدينة قال لرجاله : « ماذا تنتظرون وقد دخل الفرنسيون بأجمعهم البلد ؟ » .

أما القائد الذى كان يقوم بحراسة برج داود فقد استسلم للكونت ، وفتح له الباب الذى اعتاد الحجاج أن يؤدوا الجزية عنده ، فلما ولج حجاج المدينة جدّوا فى قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى

لقد فاض المعبد كله بدمائهم ، ولما تم لرجالنا الغلبُ على الكفرة عثروا فى المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء ، فقتلوا البعض وأبقوا على الذين أحسنوا بهم الظن .

وكان قد التجأ إلى الناحية العليا من معبد سليمان فريق كثيف من الكفرة من الجنسين رافعين أعلام تنكريد وجاستون بيرن (١) .

وانطلق الصليبيون فى جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا فى نهب البيوت الممتلئة بالثروات .

* * *

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفى صباح اليوم التالى تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ، فرمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد ، فتلظى تنكريد غيظا حين شاهد هذا المنظر .

٣٩ — وحينذاك عقد رجالنا مجلساً وانعقد إجماعهم على قيام كل منهم بالصلوات وتوزيع الصدقات كى يختار الله من بينهم واحداً يكون له الحكم على الباقين وعلى المدينة .

وصدر الأمر أيضا بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً

(١) Albert d'Aix, p. 316

وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التى ألمت بالشعب الوثنى ، وجمت أكوام من الحطب كأنها الأعلام ، ولا يعلم أحد غير الله كم عددها .

أما الكونت ريموند فقد ساق الأمير [جناح الدولة] ورفاقه حتى عسقلان وأبلغهم مأمنهم سالمين .

وفى اليوم الثامن (١) من استيلائنا على المدينة وقع الاختيار على الدوق جودفروى فانتخب أميراً للبلد قصد محاربة الكفرة والدفاع عن النصارى ، حتى إذا كان يوم عيد (٢) القديس بطرس فى الأصفاد انتخب القوم « أرنولى » بطركا للمدينة ، وكان رجلا عاقلاً شريفا ، ولقد تم لنصارى الرب الاستيلاء على هذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو .

وفى هذه الأثناء وفد على تنكريد والكونت استاش [أخى جودفروى] رسول يدعوهما للتأهب والقدوم لاستلام مدينة نابلس ، فرحلا على رأس فئة كثيرة من الفرسان والمشاة ، وبلغوا البلدة التى سرعان ما استسلم لهم سكانها .

بعدئذ طلب إليهم الدوق [جودفروى دى بويون] أن يغذوا السير لصد الهجوم الذى يشنه [الأفضل] وزير مصر على عسقلان ، فأسرعوا باقتحام الجبل مفتشين عن الشرقيين بغية مقاتلتهم ، وبلغوا قيصرية ، ثم ساحلوا سيف البحر حتى وصلوا الرملة ، فعثروا بها على جمهور غفير من العرب قادمين لنفض المكان ، فانطلقوا فى آثارهم وألقوا القبض على الكثيرين منهم ، وحملوهم على الإفضاء إليهم ببيانات تتعلق بموقفهم وعددهم وبالنواحى

(١) أى يوم ٢٢ يوليو ١٠٩٩ .
(٢) وهو أول أغسطس ١٠٩٩ .

التى يعتزمون أن يقاتلوا النصارى منها ، فلما أحاط تنكريد بذلك علما هب لساعته ، وأنفذ رسولا إلى الدوق جود فروى وإلى البطريرك [أرنول] وإلى جميع الأمراء [ببيت المقدس] يقول لهم « ليكن معلوما لديكم أن القوم يعدون العدة فى عسقلان لمهاجمتنا ، فبادروا بالمجىء بجميع القوات التى تستطيعون جمعها . »

وإذ ذاك أمر الدوق بدعوة جميع الرجال ، كما أمر بسرعة تجهيزهم وتوجيههم آمنين إلى عسقلان لصد أعدائنا وقتالهم ، وخرج هو ذاته مع البطرك وروبرت كونت فلاندر من المدينة يوم الثلاثاء[1] ، وصحبهم الأسقف « مارتيرانو » ، غير أن كونت صنجيل وروبرت النرمندى جاهرا بأنهما لن يأخذا فى المسير إلا إذا تأكد لهما خبر الهجوم ، ولذلك أمرا فرسانهما بالتقدم قبل الرحيل ليروا إن كان حقا ما قيل من استعداد [المصريين] للهجوم ، ثم العودة على جناح السرعة لأنهم كانوا على وشك المسير ، فمضى هؤلاء واتضح لهم صدق خبر زحف العدو ، وبادروا إلى العودة يروون أنهم شاهدوا ذلك بأعينهم ، وما لبث الدوق أن وقع اختياره على الأسقف « مارتيرانو » وبعثه إلى بيت المقدس حتى يتجهز الفرسان الذين كانوا بها ويمضوا فى الزحف للقتال . فلما كان يوم الأربعاء ، تحرك هؤلاء الأمراء وساروا للمعركة ، وعاد الأسقف « مارتيرانو » حاملا الرسائل إلى البطرك وإلى الدوق ، فهب الشرقيون لقطع الطريق عليه وأمسكوه ، ورجعوا به .

أما بطرس الناسك فقد بقى فى بيت المقدس لاتخاذ ما تتطلبه الحال من التدابير والاستعدادات اللازمة ، ولدفع الإغريق واللاتين والكهنة إلى

---

(١) وذلك يوم ٩ أغسطس ١٠٩٩ .

تمجيد الرب وإقامة الصلوات وتوزيع الصدقات حتى يؤتى الله شعبه ماوعده به من النصر ، ولما فرغ الكهنة والقسس من ارتداء ملابسهم الكهنوتية ساروا على رأس الموكب إلى هيكل السيد وأخذوا فى ترتيل القداس والصلوات عسى أن يقى الرب شعبه .

وأخيرا اجتمع البطرك والأساقفة والسادة الآخرون عند شاطىء نهر فى ناحية من نواحى عسقلان ، وتمكنوا باجتماعهم فى هذه الضاحية من الاستيلاء على عدد كبير من الضأن والثيران والجمال والنعاج وشتى ضروب الغنائم ، وكان العرب يناهزون ثلاثمائة رجل ، فوثب عليهم رجالنا وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغوا جيشهم ، فلما جاء المساء نادى البطرك فى جميع رجال الجيش بوجوب التأهب فى الصباح الباكر للمعركة ، وأصدر قرار الحرمان ضد كل رجل يفكر فى الاستيلاء على شىء من الغنيمة قبل انتهاء الوقعة ، فإذا تم لهم النصر استطاعوا العودة فرحين للاستيلاء على كل ماهيأه لهم الرب .

وفى الصباح الباكر دخلوا وادياً خصيباً قريباً من ساحل البحر وضربوا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الدوق إلى قواته فرتبها للقتال ، وفعل مثله كل من كونت نرمنديا وكونت صنجيل وكونت فلاندر ثم تنكريد وجاستون ، كما أرسلوا جماعة من المشاة ورماة النشاب أمام الفرسان ، ولما أتموا ذلك كله شرعوا فى القتال مستفتحيه باسم السيد يسوع المسيح .

كان على الجناح الأيسر الدوق جودفروى بقواته ، أما الكونت صنجيل فكان على الجناح الأيمن وقد أخذ يذرع الأرجاء المجاورة للبحر ، ووقف فى الوسط كل من كونت فلاندر وكونت نرمندى وتنكريد وبقية الآخرين ، ودأب رجالنا فى التقدم على هذا الوضع .

أما الوثنيون فكانوا هم الآخرون متأهبين للقتال ، وقد علق كل منهم وعاء شربه إلى عنقه ، كى يسهل عليهم تناول الماء ورشفه حتى وهم يجدون فى آثارنا ، غير أن مشيئة الرب لم تدع لهم من الوقت فترة يحققون فيها ما يبتغون، ولما رأى كونت نورمنديا عَـلَمَ القائد محلى بكرة ذهبية ومرفوعا على طرف رمح فضى ، تقدم غير هياب ووثب على حامله وضربه ضربة أردته قتيلا يتشحط فى دمه ، كما قام تنكريد بغارة على معسكر العدو الوثنى الذى ما كاد يراه حتى انطلقوا هاربين ، وكان الجند كثيرين لا يحصيهم العد ولا يعرف عددهم سوى الرب ، وحمى وطيس القتال ، غير أن قوة إلهية عاونتنا وكانت من الضخامة والبأس بالدرجة التى جعلت النصر يواتينا فى أقصر وقت .

غشى الله أبصار أعدائه وأذهلهم ، ورغم شدة إبصارهم وعيونهم المحدقة إلا أنهم كانوا يحدقون فى فرسان المسيح وكأنهم لا يرون شيئاً ما أمامهم ، ولم يعودوا يجرءون على رفع أبصارهم إلى النصارى ، لأن القوة الربانية روعتهم ، وحملهم جزعهم على تسلق الأشجار للاختفاء وراءها ، لكن رجالنا تصيدوهم رمياً بالسهام والحراب والسيوف ، واختفى البعض الآخر منهم بالارتماء على الأرض دون أن يجرءوا على الوقوف أمامنا ، بيد أن رجالنا ذبحوهم ذبح الأغنام فى السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جمعاً غفيراً منهم على كثب من البحر ، وارتمى فيه بعضهم ، وانطلق آخرون على وجوههم هائمين هنا وهناك .

* * *

أما القائد [الأفضل] الذى وصل أمام المدينة حزيناً يائساً فقد أخذ يبكى ويقول « يا أرواح الأرباب ، إن العين لم تبصر مثل ما جرى ، ولا سمعت الأذن بمثل ما حدث ! أيتها الأرواح : يا من لا تعادلك قوة ،

ولا يماثلك بأس ، ولا تضاهيك فروسية قط ، يا من لم تهزمى أبداً أمام أية أمة ولكنك غلبت على أمرك على يد هذه الفئة المسيحية الصغيرة ، ما أبلغ الحزن وما أشد الأسى ! ماذا أقول وماذا أعيد ؟ أترانى أهزم على أيدى شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لا يملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ! هؤلاء هم الذين تتبعوا الشعب المصرى الذى طالما وزع عليهم الصدقات حين كانوا يجوبون بلادنا ملتمسين الإحسان ؟ لقد جمعت هنا مائتى ألف فارس ، ولكنى رأيتهم يثنون أعنة جيادهم ويوجهونها شطر مصر هرباً ، وانطلقوا لا يلوون على الوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإننى لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا[1] أنى لن أقود أية جماعة من الفرسان بعد الآن مادمت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الأجنبى . لقد أحضرت جميع أنواع السلاح والآلات لمحاصرة الفرنجة فى بيت المقدس ، لكنهم هم الذين هاجمونى وتعقبونى مدة يومين . واأسفاه ! ماذا أقول أكثر من ذلك ؟ لقد ضاعت هيبتى إلى الأبد فى مصر ! » .

استولى رجالنا على راية [الأفضل] ، فاشتراها كونت نرمنديا بعشرين دينار فضى ، ثم وهبها للبطرك تمجيداً للرب وللضريح المقدس ، وتقدم غيره فاشترى سيف [الأفضل] بستين بيزنطية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعاً كما شاءت إرادة الرب . وكانت جميع سفن البلاد الوثنية موجودة هناك[2] ، فلما أبصر من بها انطلاق الأمير هارباً بجيشه بادروا إلى ركوب سفنهم وتسييرها بأقصى سرعة .

---

(١) هذا مثال من جهل كاتب الحوليات ، وهو شبيه بما أورده على لسان أم كربوغا مع أن جوهر الاسلام هو التوحيد .

(٢) أى فى عسقلان .

ولما عادت بقية رجالنا إلى معسكر العدو جمعوا غنيمة هائلة من الذهب والفضة ، واستولوا على أكداس من الأموال ، وعلى كثير من شتى أنواع الحيوان والأسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا الاستحواذ عليه ، وأضرموا النار فيما تبقى .

وعاد رجالنا إلى بيت المقدس حاملين معهم كل ما هم فى حاجة إليه .

وقد جرت هذه الوقعة يوم الجمعة[1] حسب مشيئة سيدنا يسوع المسيح ، الذى له المجد والشرف إلى الأبد وعلى مر القرون .

آمين .

* * *

---

(١) أى ١٢ أغسطس ١٠٩٩ م .

كشاف أبجدى

بأسماء الأعلام والأماكن والمواقع

الواردة بكتاب أعمال الفرنجة

إبليس : ١٢ .
ابن عمار (أبو على فخر الملوك) : ١٠٩ ، ١١٢ .
ابن القلانسى : ٤٠ .
أبوليا : ٧٥ .
اترانتو : ٢٣ ، ٣٦ .
اتيين : (انظر ستيفن) .
اجزير يجور جيو : ٢٠ .
احمد بن مروان : ١١ ، ٧٣ ، ٩٦ .
أدنة : ٤٥ .
أديلا : ٢٣ ، ٣٥ .
أدعاردى مونتل ٢٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٨١ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٠٠ .
اربان الثانى (البابا) : ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٧٣ ، ٧٩ .
الأرمن : ٢١ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ .
أرمينيا الصغرى : ٤٢ .
أرنول : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ .
ازنيق : ١٢ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٨١ .
استاش : ١١٨ ، ١٢٠ .
اسبانيا : ٦ ، ٥٥ .
اسكندر : ٩ .
اسكندرونة : ٨٧ .
اسكى شهر : ٣٨ ، ٨٤ .
الاسلام ٧٥ .
آسيا : ٧٤ .
آسيا الصغرى ٧ ، ٨ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨ .
أصبهان : ٧١ .
الأغالبة : ٦ .
الأغريق : ١٩ ، ٢٩ ، ٤١ ، ١٢١ .
افراد الصياد : ١٠٤
الأفضل : ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .
أكاردى مونتمويل : ٢٣ ، ١١٥ ، ١١٦ .
أكشهر : ٨٧ .
ألبارة : ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٤ .
الكسيس كومنين : ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٧ .
الألمان : ١٩ ، ٢٠ .
ألمانيا : ٤ ، ٧ ، ١٨ .
أمازونيون : ٧٤ .
أمالفى : ٢٥ .

أنا كومنين : ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ .
انتيوكس . ١٠٣ .
إنجلترا : ٤ ، ٦ .
الأنجيل : ٧١ .
أندراوس (القديس) : ٨٢ ، ٨٣ .
أندرونو بوليس : ٢٦ :
الأندلس : ٥ .
أنسلم وى ريبومونت : ١١٢ .
أنطاكية : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ .
أوبرى (جراند ميل) : ٧٩ .
أوبريه دى جانيانو . ٢٦ .
أوربة : ١٣ ، ١٤ .
إيزور موزون : ٢٣ .
إيطاليا : ٤ ، ٦ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦٩ .
ايفرار دى بواسيه : ٢٣ .
إيكيهارد : ١٣ ، ١٤ ، ١٨ .

* * *

بارى : ٦ ، ٢٣ .
باريس : ١٥ .
الباطرون : ١١٣ .
البحر الابيض المتوسط ٦ .
برج داود : ١١٨ .
برجنديا : ١٠ .
بركيارق : ٧١ .
برنديزى : ٢٣ .
بربيه : ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ١٠٨ .
البسفور : ٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٢ .
بطرس (الحوارى) : ٤٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٦ .
بطرس الأبوسى : ٤٦ ، ٨٧ .
بطرس بارتلمى : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ .
بطرس (دى) روبيه : ٤٧ .
بطرس ريموند دتبول : ٤٧ .
بطرس القشتالى : ٤٧ .
بطرس الناسك : ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٢١ .
بطرس النربونى : ١٠١
بغداد : ٢١ .
بلاجونى : ٢٧ .
بلا شرناى ٣٠ .
بلدوين : ٨ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٩٨ .
بلدوين (دى) مونس : ١٨ .
بلغاريا : ٢٦ ، ٧٥ ، ٨٩ .
بوترينتو : ٤٤ .
بوتوميتس : ٣٦ .
بولس الرسول : ٩٦ .
بونة : ٦ .
بوهيمند : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٦ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٨٣ ،
٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ؟ ١٠٦ ،
١٠٧ ، ١١١ .

پوى : ١٠ .

بويل دى شاتر : ٢٦ .

بيت المقدس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ،
٥٣ ، ٥٥ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ،
١١٩ ، ١٢١ ؟ ١٢٤ ، ١٢٥ .

بيروت : ١١٣ .

البيازنة : ٦ .

بيزنطة : ٨ ، ٢٤ ، ٥٦ .

* * *

تاتيكيوس : ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٦ .

تارنت : ٦ ، ٢٦ .

التتار : ١٨ ، ٦٧ ، ٧٠ .

الترك : ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٤ ،
٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤ ،
٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ،
١١٠ ، ١١١ .

تريسناس : ٣٦ .

تسالونيكا : ٢٩ .

تل منس : ٩٨ ، ٩٩ .

تكريد : ٨ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٤ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ،
٧٨ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

توروس : ٨ .

* * *

جاستون بيرن : ١١٩ ، ١٢٢ .

الجبل الأحمر : ٨٧ .

جبل الأنصارية : ١٠٨ .

جبل صهيون : ١١٤ ، ١١٥ .

جبل طارق : ٦ .

جبل عكار : ١٠٨ .

جبلة : ١٨ .

جبيل : ١١٣ .

جرونيه : ١٩ ، ٢٤ ، ٣٣ .

جسر الحديد : ٤٩ ، ٥٧ .

چكسو : ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ .

جناح الدولة : ١٠٩ ، ١٢٠ .

الجنوية : ٦ ، ٦٠ .

جوتييه سانز أڤوار : ١٩ ، ٢١ .

جوذ فردى دى بويون : ٨ ، ٨١ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ،
٤٠ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٢ ،
٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١١ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

جوذ فروى دىسكيا بوزو : ٤١ ، ٨٤ .

جورج (القديس) : ١١٤ .

جوفيه دى لاستور : ١٠٥ .

جى (بن روبرت جسكارد) : ٨٧ ، ٨٨ .

جى تروسو : ٧٩ .

* * *

حازم (حصن) : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٧ .
الحاكم بأمر الله : ٧ .
حلب : ٢١ ، ٤٧، ٥٢، ٧٥ ، ٧٧، ٧٨، ٩٩.
حماة : ١٠٧ ، ١٠٨ .
حمص : ١٠٩ .

* * *

خراسان : ٢١، ٣٢، ٣٤ ، ٦٠، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩١ .

* * *

دامبين (القديس) : ٣٠ .
الدانشمنديون : ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٧ .
داود النبي : ٧٦ .
الدركيولية : ٢٧ .
دمشق : ٥٢ ، ٧١ .
دورازو : ٢٣ .

* * *

رسبولو (كونت) : ٢٦ .
رفنية : ١٠٨ .
الرملة : ١١٤ ، ١٢٠ .
رنسمان : ٢١ ، ٢٩ ، ٣٨ ، ٧٣ .
الرها : ٢٨ ، ٩٨ .
روان : ١١٤ .
روبرت أنزا : ٢٦ ، ٤٠ .
روبرت (بن) توستانى : ٢٦ .
وروبرت جسكارد : ٨ ، ٢٣ ، ٤٦ .
روبرت جيراد : ٥٨ .
روبرت دوق نرمنديا: ٣٥، ٣٨، ٩٣، ٩٧، ١٠٢، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .
روبرت الراهب : ١٤ ، ١٧ .
روبرت سورديفال: ٢٦.
روبرت كونت فلاندر : ٨ ، ٢٣ ، ٣١ ، ٣٥، ٤٠ ، ٥٢، ٥٣ ، ٦٨، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٧، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٢١.
روبرت كونت هيوز : ٣٥ .
روبرت النرمندى: ٢٣ ، ٤٠ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢ .
الروج : ٢٨ ، ٤٧ ، ١٠٤ ، ١٠٧ .
روجر بارنفيل : ٣٥ .
روجر بورسا : ٢٦ .
روجر بن روجر : ٦ ، ٢٥ ، ٢٦ .
روزبة : ٦٦ .
روسا : (انظر الروج) .
روسينولو : ٢٧ .
رومة : ١٧ ، ٢٢ .
روبها : ٤٧ .
ريان (الكونت) : ٩ ، ٨٦ .
ريتشارد رينوف : ٢٦ .
ريتشارد السالرنى : ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٤٠ .
ريموند بيليه : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٦ .
ريموند تورين : ١١٠ ، ١١٥ :
ريموند داجيل : ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٠، ٩٢،
ريموند الصنجيلى : ٨ ، ١١ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦، ٤٧ ، ٥٢، ٦٠ ، ٦١، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٢، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١، ١٠٢ ، ١٠٣، ١٠٤ ، ١٠٦، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .
ريناند القائد : ٢٠ .
ريناالد : ٩٣ .
رينول السالرنى : ٣٦ .

* * *

سارى سو : ٣٨ .
ستيفان (القديس) : ١١٤ .
ستيفن دى بلوا : ٩ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ .
ستيفن ڤالنتان : ٨٠ .
سرا : ٢٩ .
السريان : ٤١ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٩٨ ، ٩٩ .
سكاڤارد : ٢٥ .
السلاجقة : ٧ ، ٢١ ، ٤٧ ، ٧٢ .
سلطانية الروم : ٥٦ .
سليمان بن سليمان : ٤٢ .
سمعان (باب) : ٦٠ ، ٦١ .
سنت جورج (مضيق... انظر البسفور) .
السويداء : ٦٠ ، ٧٩ ، ١٠٣ .
السويدية ... (انظر : السويداء)
سيلو : ١١٥ .
سيمون : ٤٥ .

* * *

الشام : ٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٠١ .
شرلمان : ١٨ .
الشرقيون : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .
شفتوت : ٣٦ .
شمس الدولة : ٧٢ ، ٧٣ .
شير : ١٥ .
شيزر : ١٠٧ ، ١٠٨ .

* * *

الصرب : ١٩ ، ٣٢ .
صقلية : ٦ ، ٢٥ .
صور : ١١٤ .
صوم الأربعين : ٢٨ .
صيداء : ١١٤ .

* * *

طرابلس : ٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .
طرسوس : ٤٢ ، ٤٤ .
طرطوس : ١١٠ .

* * *

العاصى (جسر) : ٥٨ ، ٧٣ .
العاصى (نهر) : ٤٩ .
العاصى (وادى) : ٤٨ ، ٥٢ .
العرب : ٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٢ .
عرقة : ٩٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ .
عسقلان : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ .
عكا : ١١٤ .
عيد العنصرة : ١١٤ .
عيد القيامة : ٢٩ .

* * *

غالة : ٧١ ، ٨٨ .
غلاطية : ٧٦ .
الغلمان : ٤٠ ، ٧١ ، ٧٢ .

* * *

فارس : ٢٢ ، ٧١ ، ٩١ .
الفاطميون : ٧ .
ڤالنسيا : ١٠ .
الفرس : ٤٠ ، ٧١ .
فرفر (انظر : نهر العاصى)
الفرنجة : ٥ ، ١١ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٤ .
فرنسا : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٥٥ .
الفرنسيون : ١١٨ .
ڤكتور الثالث (البابا) : ٦ .
فوشيه دى شارتر : ١٧ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٦ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٦ .
فيروز : ١٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .
فيليب الأول : ٢٣ .

* * *

قبة عمر : ١١٨ .
قبرص : ٥٦ ، ٨٣ .
القسطنطينية : ٧ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٧ .
قليج أرسلان : ٣٤ .
قونية : ٤٤ .
قيصرية : ٤٦ ، ١١٤ ، ١٢٠ .

* * *

كبادوشيا : ٤٢ ، ٤٦ .
كربوغا : ٩ ، ١٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٢٤ .
الكزد : ٧١ .
كستوريا : ٢٦ ، ٢٧ .
كفر طاب : ١٠٧ .
كنيسة بطرس : ١٠٢ .
كلير مونت : ٣ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٧٩ .
كولوس : ١٨ .
كوم (القديس) : ٣٠ .
كومانا : ٤٦ .
كيشان : (انظر الروج) .
كييف : ٢٣ .

* * *

اللاتين : ٢١ ، ١٢١ .
اللاذقية : ١١٠ ، ١١١ .
لامبرت الفقير : ٧٩ .
اللمبارديون : ١٠ ، ١١ ، ٣٩ ، ٦٩ .
لوسيا : ٣٨ .
لوقا (انجيل) ١٧ .
ليتو : ١١٨ .

* * *

ماترانو : ١٢١ .
مالطة : ٦ .
مالكرون : ٦٨
متى الزهاوى : ٣٤ ، ٥٤ .
المجر : ١٨ ، ١٩ .
محمد (صلعم) : ٧٥ ، ١٢٤ .
المحمرة : ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٢
مرعش : ٤٨ .
مرقب : ٥١ .

مرموتييه (دير) : ١٤
مرقية : ١١٠
مريم (البتول) : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٠٩ ، ١١٥ .
المزامير : ٧٦ .
المسلمون : ٣٩ ، ٥٢ .
المسيح (عليه السلام) ٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩٠ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ .
مصر : ٥٩ ، ٦٣ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٤ .
المصيصة : ٤٥ .
معبد سليمان : (انظر هيكل) .
معرة النعمان : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
مقدونيا الشرقية : ٢٩ .
الملاحدة : ٢٧ .
ملازكرت : (انظر منزيكرت) .
ملكشاه : ٧١ .
منزيكرت : ٧ .
المهدية : ٦ .
الموصل : ٩ .
ميخائيل (الملاك) : ٢٠ .
ميشيل السرياني : ٣٤ .
ميناء سمعان (انظر السويدية) .
مينز : ١٤ .

* * *

نابلس : ١٢٠ .
النرمان : (انظر : النرمنديون) .
نرمنديا : ٢٣ .
النرمنديون : ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٦٩ .
النصارى : ٢٠ ، ٣٢ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٩ .
نهر ابراهيم : ١١٣ .
نهر العاصى : ١٠٣ ، ١٠٨ .
نيقو ميديا : ١٩ ، ٣٢ .
نيقية (انظر ازنيق) .
نيكيتاس : ١٩ .

* * *

هاجنابر : ١٥ ، ٤٦ .
هانوفر : ١٥ .
هرسك : ٢١ ، ٢٢ .
هرقل (مضيق، انظر جبل طارق) .
هرقلية : ٤٤ .
هرلوان : ٩٠ ، ٩١ .
هرمان دى كانى : ٢٦ .
هنرى الأول : ٢٣ .
هنفرى بن رودلف : ٢٦ .
هنفرى دى مونت سيكابوزا : ٢٦ .
هولندة : ٤ .
هيج الثائر : ٨٤ .
هيج (العظيم ، أو الرئيس ، أو الكبير انظر هيج ڤيرماندوا) :
هيج ڤيرماندوا : ١١ ، ٢٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ٩٨ .

هيد لبرج : ١٥ .
هيكل سليمان : ١١٨ ، ١١٩ .

* * *

وادى البقيعة : ١٠٨ ، ١١٢ .
الوردار : ١٢ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٢٨ .
وليم أسقف أورنج : ١٠٦ .
وليم بيكاردى : ١١٢ .
وليم جراندميل : ٧٩ ، ٨٧ .
وليم السبرانى : ١١٥ .
وليم الصورى : ٢٤ .
وليم الفاتح : ٢٣ ، ٣٥ .
وليم مونت بيليه : ١٠٤ .
وليم النجار : ٥٣ ، ٥٥ .
وليم بن المركيز : ٢٣ ، ٤١ .
وليم مونبابيه : ٤٧ .

* * *

ياغى سيان : ٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ١٠٣ ، ١٠٧ .
يافا : ١١٤ ، ١١٥ .
يسوع (انظر: المسيح) .
يوحنا كومنين : ٢٣ .

الفهرس

كتاب أعمال الفرنجة

ص	الموضوع
٣	مقدمة المترجم .
١٧	الدعوة للحملة الصليبية الأولى .
٢٨	من وقعة الوردار إلى الاستيلاء على نيقية .
٣٨	زحف الصليبيين فى آسيا الصغرى .
٤٢	زحف الصليبيين على أنطاكية .
٤٩	بدء حصار أنطاكية .
٥٣	حصار أنطاكية .
٦٠	حصار أنطاكية .
٦٤	نهاية حصار أنطاكية والاستيلاء عليها .
٧١	حصار الترك لأنطاكية .
٩٧	من تخليص أنطاكية إلى وقعة عسقلان .
١٢٦	كشاف أبجدى بأسماء الأعلام .
١٣٤	فهرس .

كتب

دكتور حسن حبشى

صدر منها :

١ — نور الدين والصليبيون ١٩٤٨

٢ — الشرق العربى بين شقى الرحى ١٩٤٨

٣ — أهل الذمة فى الإسلام لترتون ١٩٤٩

٤ — الحرب الصليبية الأولى ١٩٥٨

٥ — أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ١٩٥٨

(٦) A. Fifteenth Century Crusade Attempt Against Egypt 1958.

تحت الطبع :

١ — الدبلوماسية البابوية .

٢ — تاريخ الأندلس لدوزى (فى أربعة أجزاء) .

٣ — تاريخ العرب الأدبى لنيكلسون .

٤ — الأقطاع فى العصور الوسطى لجينهوف

(تصدره المكتبة التاريخية)

٥ — التطور التاريخى للجريمة والعقاب .

٦ — رحلة السفير القشتالى تافور .

٧ — أنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلانى (فى ٥ مجلدات)

(٨) The Mamluk Expeditions Against Castelrosso And Rhodes

